المبحث الثاني

الإيجاز

الإيجاز:

يعد الإيجاز من أهم خصائص اللغة العربية، وقد بلغ ميل العرب إلى الإيجاز درجة كبيرة حتى قيل: الإيجاز هو البلاغة[1]، واذا ذكر الإيجاز ذكر الإطناب إذ إنه مقابل له لذلك سيعمد هذا المبحث التعريف بهما أولا، واستقراءهما عند السابقين للرماني ثانياً، ليصل إلى ما أورده الرماني فيهما.

ولاشك أن أهمية الإيجاز عند العرب بوصفه رديفا للفظة البلاغة قد جعلت الرماني يضعه في مقدمة أقسام البلاغة المعجزة.

الإيجاز لغة:

وجز الكلام وجازة وأوجز: قل في البلاغة، وأوجزه: اختصره، وكلام وأجيز: خفيف، والوجز: السريع العطاء، واوجز القول والعطاء: قلله[2].

الإيجاز اصطلاحاً:

هو ((قلة عدد اللفظ مع كثرة المعاني))[3] وذلك يعني أن يكون اللفظ أقل من المعنى مع الوفاء به وهكذا نلحظ أن المعنى الاصطلاحي لايختلف كثيراً ولايبتعد عن المعنى اللغوي والرابط بينهما هو الاختصار وسرعة العطاء.

الإطناب لغة:

الأطناب: الطوال من حبال الأخبية، وأطناب الشجر عروق تتشعب من أرومتها، وفرس في ظهره طنب: أي طول، وأطنبت الإبل: إذا تبع بعضها بعضاً، والإطناب البلاغة في المنطق والوصف، وأطنب في الكلام بالغ فيه[4]. وهكذا نجد لمادة (طنب) في اللغة معاني متعددة تدل في الغالب على الطول والتتابع.

الإطناب اصطلاحاً:

((هو زيادة اللفظ على المعنى لفائدة))[5].

الإيجاز عند السابقين للرماني:

(1) =: البيان والتبيين: 1 / 96، كتاب الصناعتين، لابي هلال العسكري / 209.
(2) =: ل: 5/ 427 مادة (وجز).
(3) البيان والتبيين: 2 / 28.
(4) =: ل: 1 / 561 مادة (طنب).
(5) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، لابن الاثير: 2 / 128.

يعد الإيجاز سمة من السمات التي نشأت مع نشأة اللغة العربية، فهو قديم قدم اللغة لاسيما أن النفس العربية تميل إلى الإيجاز في الكلام وتسأم التطويل وتنفر منه، والاشارة الاولى إلى الإيجاز عند علماء العربية السابقين للرماني نجدها عند الخليل (ت175 هـ) إذ يقول في قوله تعالى: ﴿ انتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ ﴾ [1]: ((كأنك تحمله على ذلك المعنى، كأنك قلت: إنته وادخل فيما هو خير لك فنصبته لأنك قد عرفت أنك إذا قلت له: انته. انك تحمله على امر آخر، فلذلك انتصب))[2]، وفي حذف الجواب يقول: ((إن العرب تترك في مثل هذا الخبر - الجواب - في كلامهم لعلم المخبر لأي شيء وضع هذا الكلام))[3]، فهو يشترط في الحذف علم المخاطب ويؤكد أن القصد من الحذف هو الإيجاز.

وتتعدد اسباب الحذف عند سيبويه (ت180هـ) فمنها كثرة الاستعمال إذ يقول: ((وما حذف في الكلام لكثرة استعمالهم كثير))[4]، ومنها علم المخاطب بالمحذوف ودلالة السياق عليه، ومنها سعة الكلام والاختصار[5]ومنها التخفيف[6] ويشترط سيبويه في الحذف عدم الالتباس على المخاطب[7].

وعلى الرغم من أن الفراء (ت207 هـ) لم يعقد أبواباً للفنون البلاغية إلاّ أنه تطرق إليها خلال تفسيره للآيات، فنجده يتحدث عن الحذف وأنواعه، ويقول عن سبب الحذف أن معناه معلوم، والحذف عنده للايجاز والاختصار وكراهة ذكر مايفهمه السامع دون ذكره، فتارة يسميه (تركاً)، وحيناً يقول عنه (إسقاطاً)، وحيناً يسميه (إضماراً) لاسيما إذا كان المحذوف ضميراً، كما تحدث عن حذف الجواب أيضاً دون إظهار بلاغته واشترط أن يكون أمره معلوماً[8].

أمّا إيجاز الحذف عند أبي عبيدة (ت208هـ) فهو للاختصار وطلب الخفة إذ يقول: ((العرب تختصر الكلام ليخففوه لعلم المستمع بتمامه))[9].

---

(1) سورة النساء: من 171.
(2) الكتاب، لسيبويه: 1 / 283.
(3) م ن: 3 / 103.
(4) ن: 2 / 130.
(5) =: ن: 1 / 74 ، 222 ، 212.
(6) =: ن: 2 / 239 و 344 و 3 / 247، 498.
(7) =: ن: 1 / 66.
(8) =: معاني القرآن: 1 / 103 و228 و 425 و 331 و 332 و 2 / 6 و 63 و 204 و 219.
(9) مجاز القرآن: 1 / 111.

ويعقد الجاحظ (ت255هـ) باباً للايجاز بالحذف بعنوان ((باب من الكلام المحذوف))[1] يتحدث فيه عن أنواع الحذف وأسبابه، ويتحدث عن إيجاز القصر دون تسميته فيقول: ((واحسن الكلام ماكان قليله يغنيك عن كثيره، ومعناه في ظاهر لفظه))[2] ويقول أيضاً: ((لي كتاب جمعت فيه آياً من القرآن، لتعرف بها فضل مابين الإيجاز والحذف، وبين الزوائد والفضول والاستعارات، فاذا قرأتها رأيت فضلها في الإيجاز والجمع للمعاني الكثيرة بالألفاظ القليلة على الذي كتبته لك في باب الإيجاز وترك الفضول فمنها قوله تعالى: ﴿ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴾ [3] وهاتان الكلمتان قد جمعتا جميع عيوب خمر أهل الدنيا وقوله تعالى: ﴿ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴾ [4] جمع بهاتين الكلمتين جميع تلك المعاني))[5] وهنا يفرق بين الإيجاز والحذف وإن الإيجاز عنده هو القصر. ويؤكد الجاحظ على وجود إيجاز القصر في القرآن الكريم وفي كلام الرسول ﷺ إذ يقول: ((والذي يدلك على أن الله ﷻ قد خصه بالايجاز وقلة عدد اللفظ مع كثرة المعاني قوله ﷺ ((نصرت بالصبا وأعطيت جوامع الكلم))[6] ويربط الجاحظ بين الإيجاز والإفهام أي إصابة المعنى بأقصر طريق[7]، ويشترط الجاحظ في الحذف الوضوح إذ يقول: ((وإنما ينبغي له أن يحذف بقدر مالايكون سبباً لإغلاقه))[8] وهي إشارة إلى أن من الحذف مايؤدي إلى الغموض فيكون الإيجاز مخلاً، ويتحدث الجاحظ عن الإطناب أيضاً ويورده بنصه ومعناه[9]، ويعده من البلاغة إذ يقول: ((وقد يكون الباب من الكلام من أتى عليه فيما يسع بطن طومار فقد أوجز، وكذلك الاطالة... فما فضل عن المقدار فهو الخطل))[10] فهو يفرق بين الإطناب والتطويل. ويشير الجاحظ إلى أن القرآن يتضمن الإيجاز والإطناب، وكلاهما من البلاغة المعجزة كل في موضعه فيقول: ((ورأينا الله تبارك وتعالى إذا خاطب

(1) البيان والتبيين: 2 / 278.
(2) م ن: 1 / 83.
(3) سورة الواقعة: 19
(4) س ن: 33
(5) الحيوان: 3 / 86.
(6) البيان والتبيين: 2 / 28.
(7) م ن: 1 / 148.
(8) الحيوان: 1 / 91.
(9) =: م ن : 6 / 7
(10) الحيوان : 1 / 91.

العرب والأعراب، أخرج الكلام مخرج الإشارة والوحي والحذف، واذا خاطب بني إسرائيل أو حكى عنهم، جعله مبسوطاً وزاد في الكلام))[1] ويفرق الجاحظ بين الإطناب والتطويل والايجاز والتقصير[2]، فما لم يجاوز مقدار الحاجة ووقف عند منتهى البغية فليس بإطالة، ويرى أن للإطناب موضعاً وليس ذلك بخطل، وللإقلال موضعاً وليس ذلك من عجز[3]. كما كما تحدث الجاحظ عن المساواة ويظهر ذلك بقوله: ((إنما الألفاظ على أقدار المعاني))[4] ويقول في موضع اخر ((حتى يقسم أقدار الكلام على أقدار المعاني))[5] ويتحدث الجاحظ عن قلة عدد الحروف، وعلى الرغم من أنه يقول أولاً: ((والإيجاز ليس يعنى به قلة عدد الحروف واللفظ))[6] ويمدح في مقابل ذلك الإطناب ويعده بلاغة في موضعه، إلاّ أنه في موضع آخر يرى العكس إذ يقول: ((وأنا ذاكر بعد هذا فنا آخر من كلامه ﷺ وهو الكلام الذي قل عدد حروفه وكثر عدد معانيه، وجل عن الصنعة ونزه عن التكلف))[7] فهو هنا يمدح هذه القلة ويعدها سبباً في الإيجاز البليغ، بل نجده احياناً يمدح الكلام الذي يكون كالوحي والاشارة، فيورد قول ((أبي داود بن حريز الأيادي:

يرمـــون بالخطـــب الطـــوال وتـــارة وحـــي الملاحـــظ حنيفـــة الرقبـــاء

فمدح كما ترى: الاطالة في موضعها والحذف في موضعه))[8]، فقلة الحروف عندهم إذا سبب في بلاغة الإيجاز، وينبه الجاحظ إلى الأثر النفسي للايجاز بقوله: ((إن النفوس إذا كانت إلى الطرائف أحن وبالنوادر اشغف والى قصار الاحاديث أميل وبها أصب، إنها خليقة لاستثقال الكثير))[9] ويقول في موضع آخر: ((فاذا كان المعنى شريفاً واللفظ بليغاً... صنع في القلوب صنيع الغيث في التربة الكريمة))[10].

(1) م ن: 1 / 94.
(2) التقصير: تقليل الكلام بما يؤدي إلى الاخلال بالمعنى المتوخى.
(3) =: الحيوان: 6 / 7 و 1 / 93 والبيان والتبيين: 1 / 97 ورسائل الجاحظ 4 / 152.
(4) الحيوان: 6 / 7.
(5) البيان والتبيين: 1 / 139.
(6) الحيوان: 1 / 91.
(7) البيان والتبيين: 2 / 16 - 17.
(8) م ن: 1 / 155.
(9) الحيوان: 6 / 8.
(10) البيان والتبيين: 1 / 83.

ويرى ابن وهب ((أن العرب تستعمل الحذف للإيجاز والاختصار لاسيما إذا كان المخاطب عالماً بمرادها))، كما يشير إلى أن الحذف كثير في كلام العرب[1]، ويربط ابن وهب بين الإيجاز والاطناب ليبين بلاغتهما كل في موضعه فينقل لنا قول جعفر بن يحيى: ((إذا كان الإكثار أبلغ، كان الإيجاز تقصيراً، واذا كان الإيجاز كافياً كان الاكثار هذراً))[2] ويخصص ابن وهب مواضع الإيجاز ليستعمل ((في مخاطبة الخاصة وذوي الافهام الثاقبة الذين يجتزؤون بيسير القول عن كثيره وبمجمله عن تفسيره وفي المواضع والسنن والوصايا التي يراد حفظها ونقلها))[3]، أمّا مواضع الإطناب فانه يستعمل في ((مخاطبة العوام ومن ليس من ذوي الافهام، ومن لايكتفي من القول بيسيره، ولايتفتق ذهنه إلاّ بتكريره وايضاح تفسيره، ولهذا استعمل الله في مواضع من كتابه تكرير القصص وتصريف القول ليفهم من يبعد فهمه ويعلم من قصر علمه، واستعمل في مواضع أخر الإيجاز والاختصار لذوي العقول والابصار))[4].

وإلى مثل ذلك يذهب ابن قتيبة (ت276هـ) بعد أن يروي لنا قول احدهم: ((واجمع الكثير مما تريد في القليل مما تقول)) فيعلق على ذلك بقوله: ((يريد الإيجاز، وهذا ليس بمحمود في كل موضع ولا بمختار في كل كتاب، بل لكل مقام مقال، ولو كان الإيجاز محموداً في كل الاحوال لجرده الله تعالى في القرآن ولم يفعل ذلك ولكنه اطال تارة للتوكيد وحذف تارة للايجاز وكرر تارة للافهام))[5] ويعقد ابن قتيبة باباً للحذف والاختصار يتحدث يتحدث فيه عن انواع الحذف ويكتفي بالقول بأنه للاختصار ولعلم المخاطب به[6].بيد أن ابن ابن قتيبة يشير إلى مسألة الغموض في الحذف إذ يقول: ((وقد يشكل الكلام ويغمض بالاختصار والاضمار)) [7] لكنه يشترط في الحذف وجود مايدل على المحذوف ((لأن العرب إنما تحذف من الكلام مايدل عليه مايظهر))[8]. ونجده يشير أيضاً إلى إيجاز القصر

(1) =: البرهان في وجوه البيان / 150.
(2) م ن / 195.
(3) ن / 195 .
(4) ن / 196.
(5) ادب الكاتب / 15 - 16.
(6) =: تأويل مشكل القرآن / 214.
(7) م ن / 218.
(8) تأويل مشكل القرآن / 219.

دون تسميته إذ يقول في القرآن الكريم أن الله ((جمع الكثير من معانيه في القليل من لفظه))[1] ويذكر امثلة لذلك ويعقد مقارنة بين بعض الايات وابيات من الشعر، ولكنه يبين بعبارات موجزة أن الاختصار والايجاز في القرآن لايضاهى[2].

ويتحدث ابن المدبر عن الحذف فيقول: ((واعلم أنه لايجوز في الرسائل ما أتى في أي القرآن من الايصال والحذف... لأن الله خاطب بالقرآن أقواماً فصحاء فهموا عنه - جل ثناؤه - أمره ونهيه ومراده))[3]، فهو لايجيز للكاتب أن يذهب على مثل ما جاء في القرآن الكريم من حذف كقوله تعالى: ﴿ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ﴾ [4] وغيرها من الايات.

ويتحدث المبرد عن إيجاز الحذف ويرى أن السبب في حذف الجواب أو الخبر يكون بعلم المخاطب به ولكثرة استعمالهم له، وتكون غاية الحذف فيه للتعظيم كقوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ ﴾ [5] ويرى أن الحذف كثير في كلام العرب بشرط أن يبقى دليلاً على مايلقى[6] وتحدث أيضاً عن إيجاز القصر دون تسميته، وعقد مقارنة بين قولهم (القتل أنفى للقتل) وبين قوله تعالى: ﴿ وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ ﴾ [7]، فيقول في قولهم المذكور إن القاتل إذا قتل امتنع غيره من التعرض للقتل وفي الآية الكريمة يقول: ((جاء ما لا اعتراض عليه ولا معارضة له))[8]. وتحدث عن المساواة أيضاً خلال حديثه عن قوله ﷺ ((كفى بالسلامة داءً)) إذ يقول: ((فانظر إلى هذا الكلام الذي لازيادة فيه ولانقصان، ولايطول المعنى ولايقصر
عنه))[9] ويعقد مقارنات بين الشعر وبعض الايات ليثبت أن الشعر مهما ارتقى لن يصل إلى بلاغة القرآن.

(1) م ن / 3.
(2) =: ن / 8.
(3) الرسالة العذراء / 18.
(4) سورة يوسف: من 82.
(5) سورة الحاقة: 3.
(6) =: ما اتفق لفظه واختلف معناه / 32، والمقتصب: 2 / 79 و 81 و 151 و 3 / 254.
(7) سورة البقرة: من 179.
(8) البلاغة / 92.
(9) م ن / 90.

ونجد عند ثعلب (ت291هـ) أن الإيجاز هو من صفات أعلى طبقات الشعر والتي تسمى ((الأبيات الغر، وهو مانجم من صدر البيت بتمام معناه دون عجزه وكان لو طرح آخره لأغنى أوله بوضوح دلالته))[1] لذا فالعرب امتدحت الإيجاز والاختصار فقالوا: (لمحة (لمحة دالة) و (لاتخطيء ولاتبطيء)[2].

ويتحدث ابن طباطبا (ت322هـ) عن الإيجاز الذي يكون للاختصار الذي يدفع الملل عن السامع، ونجده يشترط مع الإيجاز أشياء أخرى فيقول: ((أوجز كلام، وأبلغ حكاية، وأحسن تأليف، وألطف إيماءة))[3].

ويرى قدامة (ت337هـ) أن الإيجاز يكون سببا في حسن المديح والهجاء حتى لو وصل إلى حد الايماء والاشارة[4]. وفي باب ائتلاف اللفظ مع المعنى يذكر قدامة المساواة وهي عنده ((أن يكون اللفظ مساوياً للمعنى حتى لايزيد عليه ولاينقص عنه، وهذه هي البلاغة التي وصف بها بعض الكتاب رجلا فقال: كانت ألفاظه قوالب لمعانيه، أي مساوية لها لايفضل احدهما على الاخر))[5]. ويعد قدامة (الإشارة) من انواع ائتلاف اللفظ مع المعنى وهي عنده ((أن يكون اللفظ القليل مشتملاً على معانٍ كثيرة بايماء إليها أو لمحة تدل عليها))[6] ولاشك أن حديثه هذا ينطبق على مايسمى بايجاز القصر عند الرماني، ويشير قدامة إلى الإيجاز المخل ويسميه (الاخلال) ((وهو أن يترك من اللفظ مابه يتم المعنى))[7]، المعنى))[7]، ويرى أن ذلك من عيوب ائتلاف اللفظ مع المعنى، ويرى مقابل ذلك أن الزيادة الزيادة في اللفظ تكون اخلالا أيضاً لاسيما إذا أفسدت هذه الزيادة المعنى[8].

(1) قواعد الشعر / 76.
(2) =: م ن / 76.
(3) عيار الشعر / 45.
(4) =: نقد الشعر / 84 - 86.
(5) م ن / 171.
(6) ن / 174.
(7) ن / 245.
(8) =: ن / 247.

ويذهب الآمدي (ت370هـ) أيضاً إلى أن الإيجاز والاختصار إذا كان مخلاً في تقديم المعنى فهو مذموم لاسيما إذا أدى إلى الإغلاق، فهو يعده من عيوب نسج البيت الشعري[1].

وهكذا نجد أن السابقين للرماني تناولوا جوانب من الإيجاز والاطناب بالحديث وفرقوا بينهما واوضحوا مواضع كل منهما واسبابهما، وتحدثوا أيضاً عن الإيجاز المخل والاطناب الممل واظهروا جانباً من مواضع الإيجاز والاطناب في القرآن الكريم متلمسين فيها هذه البلاغة المعجزة، كما أشار بعضهم إلى الغموض في الإيجاز واشار اخرون إلى المساواة والى الأثر النفسي للايجاز، وعلى الرغم من تعدد اقوالهم في هذا الموضوع إلاّ انهم اشتركوا في القول باسباب الحذف فكانوا يذكرون دائماً أنه للاختصار ولعلم السامع به وللتخفيف ودفع الملل وللتعظيم وكثرة الاستعمال ودلالة السياق وغير ذلك، إذ تتعدد عندهم الدوافع التي وجد من اجلها الإيجاز - فضلا عن ميل النفس العربية إليه، وفي ضوء ذلك فإن ماذهب إليه الدكتور عبد الفتاح لاشين - من أن ((غلبة الامية في الجاهلية التي استلزمت الاعتماد على الذاكرة كانت من أهم دواعي الإيجاز))[2] - ليس دقيقاً، ولو صح ماذهب إليه لما وجد الإطناب في كثير من أقوالهم في مواضعه ولما عد بلاغة عندهم وقد اتضح أيضاً أن بعضهم قد عقد مقارنات بين الشعر وآي من القرآن محاولة منهم لتأكيد بلاغة القرآن المعجزة في هذا الميدان، كما تجلى أيضاً أن الإيجاز عندهم قد ارتبط بالمعنى، وما كان خلاف ذلك فهو إيجاز مخل يؤدي إلى التعقيد أو الابهام.

الإيجاز عند الرماني:

هو ((تقليل الكلام من غير اخلال بالمعنى))[3]، والنظرة الاولى لهذا التعبير لاتظهر شيئاً جديداً أو مختلفاً عن اقوال السابقين له في هذه المسألة، ولكن أبا الحسن دقيق في اختيار الألفاظ عند وضع الحدود، فكلمة (تقليل) جاءت تهيئة للحديث عن أقسام الإيجاز التي عرفها السابقون وتابعهم فيها الرماني، (فالتقليل) يشمل الحذف والقصر، وهما قسما الإيجاز عنده، أمّا لفظة (الكلام) فانها تشمل الكلمة الواحدة وتشمل الجملة، فالكلام اسم جنس يقع على القليل والكثير[4]، وقد كان نحاة العرب يطلقون لفظة (الكلمة) وقد يقصد بها ((الكلام،

(1) =: الموازنة بين ابي تمام والبحتري / 317.
(2) المعاني في ضوء أساليب القرآن / 341.
(3) ر / 76.
(4) =: ل: 12 / 523 مادة (كلم).

وهو التعبير عن الفكرة أو الشعور أو الارادة بنظام من الاصوات والرموز الدالة على معان))[1] ويؤكد الرماني - كسابقيه - على المعنى، فتقليل الكلام إيجاز في اللفظ ولكنه يقيده بشرط عدم الاخلال بالمعنى، وليس كل معنى يمكن أن يوجز وانما المعنى الذي ((يمكن أن يعبر عنه بالفاظ كثيرة ويمكن أن يعبر عنه بالفاظ قليلة فالالفاظ القليلة إيجاز))[2]. والرماني لم يعرف الإيجاز تعريفاً واحداً، بل اورد تعريفات أخرى، ولعل السبب في ذلك أنه يجيب هنا عن سؤال في ذكر النكت في إعجاز القرآن، فهو ((في مقام الشرح والتعليم))[3] ومن هذه التعريفات قوله: ((الإيجاز تهذيب الكلام بما يحسن به البيان))[4] ولاشك أن التهذيب هنا يعني تنقية الكلام مما يثقل على اللسان وينفر عنه السمع ولا تتقبله النفس ومما يسأم منه المتلقي، وليست التنقية حذفاً أو تقليلاً فقط، بل ابقاء مايحسن به البيان واختيار مامن شأنه - من الألفاظ - أن يسمو بالتركيب ((حتى يحسن في السمع ويسهل على اللسان وتتقبله النفس))[5]، والتهذيب هنا ليس لفظياً فقط، بل يراعى فيه حسن اظهار المعنى لأن البيان يعني ((المنطق الفصيح المعبر عما في الضمير))[6] ويذكر الرماني تعريفاً اخر للايجاز فيقول: ((والايجاز تصفيه الألفاظ من الكدر وتخليصها من الدرن))[7]، وهذه التصفية لاتختلف عن التهذيب كثيراً فكلاهما يشمل الألفاظ والتراكيب معاً مع مراعاة المعنى المراد التعبير عنه، ويقول في تعريف آخر: ((الإيجاز البيان عن المعنى بأقل مايمكن من الألفاظ))[8] والبيان هنا يعني الكشف والاظهار وهو اصله في اللغة، ولكنه لم يقل (الكشف عن المعنى) أو (اظهار المعنى) لأن البيان هنا اوسع من ذلك فهو يطلق على (الاعلام والتبيين والدليل)[9] واراد الرماني بهذه اللفظة أن يعبر عن أن كشف المعنى واظهاره بأقل الألفاظ ليس هو الإيجاز، بل الوصول بهذا المعنى إلى النفس لأن البيان قد عبر عنه بعض

(1) معجم المصطلحات العربية في اللغة والادب، مجدي وهبة، وكامل المهندس / 171.
(2) ر / 76.
(3) اثر النحاة في البحث البلاغي / 243.
(4) ر / 80.
(5) ر / 107.
(6) كشاف اصطلاحات الفنون: 1 / 153 و =: الكليات 1 / 395.
(7) ر / 80.
(8) ر / 80 .
(9) =: كشاف اصطلاحات الفنون: 1 / 153.

البلاغيين بأنه ((الكشف عن المعنى حتى تدركه النفس))[1] ولاشك في أن الرماني اراد ذلك ذلك لأنه عرف البلاغة بأنها ((ايصال المعنى إلى القلب في أحسن صورة من اللفظ))[2] فضلا عن أن البيان عنده يعني البلاغة، وقد أوضحنا ذلك في المبحث الأول. وفي تعريف آخر يقول في الإيجاز أنه ((اظهار المعنى الكثير باللفظ اليسير))[3] وهكذا تتعدد تعريفات الإيجاز عنده لتؤكد امرين: ((الأول الوفاء بالمعنى بدقائقه وخصوصياته... والثاني: الاقتصاد في اللفظ))[4]. ولابن سنان (ت 466هـ) راي في تعريف الرماني للايجاز يجليه قوله: ((ويجب أن نحد الإيجاز المحمود بأن نقول: هو ايضاح المعنى بأقل مايمكن من اللفظ، وهذا الحد اصح من حد ابي الحسن الرماني بأنه العبارة عن المعنى بأقل مايمكن من اللفظ، وانما كان حدنا اولى لانا قد احترزنا بقولنا - ايضاح - من أن تكون العبارة عن المعنى وأن كانت موجزة غير موضحة له...))[5] والحق اننا لم نجد في تعريفات الرماني لفظة (العبارة) بل وجدنا - وكما اوضحنا - أن الرماني كان دقيقاً في اختيار الألفاظ في تعريفه للايجاز، وحتى لو صح لابن سنان هذا القول فان الرماني لم يغفل جانب المعنى وايضاحه وعدم الاخلال به، وقد كان ذلك واضحاً ولاسيما في تعريفه الأول، بل أن قول الرماني في الإيجاز إنه (البيان عن المعنى) هو ادق من قول ابن سنان (ايضاح المعنى) لما تحمله لفظة البيان من معان ودلالات فهي تجمع الايضاح والكشف والاظهار والمنطق الفصيح وايصال المعنى إلى القلب وأن يكون هذا اللفظ الموجز بليغاً وهذا ما لانجده في لفظة (ايضاح) التي أوردها ابن سنان.

انواع الإيجاز عنده:

يبدا الرماني - حسب منهجه - بتقسيم الإيجاز على نوعين:

إيجاز حذف، وايجاز قصر:

أولا: إيجاز الحذف:

(1) العمدة: 1 / 254.
(2) ر / 76.
(3) ر / 80.
(4) الإعجاز البلاغي / 90.
(5) سر الفصاحة / 248.

وحده عند الرماني ((اسقاط كلمة للاجتزاء عنها بدلالة غيرها من الحال أو فحوى الكلام))[1] فهو يستعمل لفظة (اسقاط) وقد سبقه في استعمالها الفراء - كما اشرنا من قبل - واستعمال هذه اللفظة يوحي بأن الكلام قد اكتمل في التعبير عن المعنى ثم يكون بعد ذلك اسقاطاً لبعض الألفاظ، ولايكون هذا الاسقاط عشوائياً، بل لابد من وجود دليل عليه، ويظهر الرماني هنا نوعين من ادلة الحذف، احدهما (الحال) والذي يعني السياق الحالي أو القرينة الحالية ولا ارى انها تعني (قاعدة النحو) كما فسرها الدكتور منير سلطان[2]. وثانيهما: (فحوى الكلام) وهو السياق اللفظي أو سياق الكلام وقد وجدنا عند السابقين للرماني لمحات سريعة عن السياق اللفظي اوردها سيبويه وابن قتيبة والمبرد وقد اشرنا إليها في بداية المبحث.

الغموض في إيجاز الحذف:

يعد الرماني الحذف غامضا ((للحاجة إلى العلم بالمواضع التي يصلح فيها من المواضع التي لايصلح))[3] وكان ابن قتيبة[4] قد أشار من قبل إلى مسألة الغموض في الحذف لذلك اشترط وجود مايدل على المحذوف، وقد اشترط الرماني هنا دلالة الحال ودلالة السياق اللفظي، ولاشك أن الغموض الذي تحدث عنه ابن قتيبة والرماني ليس هو الغموض الذي يدخل المتلقي في متاهات بعيدة عن المعنى، إنما هو الغموض الذي يعد ركيزة في جمال الحذف فهو ((الغموض الذي يطلق للنفس العنان فتذهب في الحدس كل مذهب وترتاد افاق المعاني التي يحتملها التعبير، ولوقيد المعنى بلفظ لقصر عن وجهه ولم يؤد الغرض تمام الاداء))[5] ويظهر ذلك جليا في تعليق الرماني على حذف الجواب إذ يقول يقول ((صار الحذف في مثل هذا ابلغ من الذكر لأن النفس تذهب فيه كل مذهب ولو ذكر الجواب لقصر على الوجه الذي تضمنه البيان))[6] ، وهكذا يظهر الرماني جزءاً من جمال الحذف، ولايشوه هذا الجمال بذكر تقدير المحذوف في عرضه للشواهد القرآنية - إلاّ في حذف الجواب - ادراكا منه أن تقدير المحذوف يفسد جمال العبارة وأن هذا التقدير ((عبث

(1) ر / 76.
(2) =: بلاغة الكلمة والجملة والجمل / 195.
(3) ر / 77.
(4) =: تأويل مشكل القرآن / 218.
(5) اثر القرآن في تطور النقد العربي، د. محمد زغلول سلام / 245.
(6) ر / 77.

بالنص وخروج على المعنى الذي اريد به، وهو بعد ذلك كله تضييع، لفنية الاسلوب))[1] أمّا في حذف الجواب فهو يذكر هذا التقدير ليظهر بلاغة الحذف وجماله واثره في النفس، وليثبت أن الغموض فيه جزء من هذا الجمال. واذا كان الغموض في الحذف هو جمال المعنى، فالرماني لايفوته أن يحدد جمال الاسلوب أيضاً، فجمال الاسلوب، عنده يعتمد على امور تجتمع لتكسب الاسلوب جمالا ورونقاً وهذه الامور: الإيجاز، وحسن الرونق، وعذوبة اللفظ، وصحة المعنى[2].

شواهد إيجاز الحذف عند الرماني:

لم يفصل الرماني في ذكر انواع الحذف كما فعل السابقون له، وانما اقتصر في حديثه على تعريف الحذف وذكر شواهده، وهي شواهد نجدها عند السابقين له كابن قتيبة وغيره بتفصيل وتقدير للمحذوف، وربما كان ذلك دافعاً للرماني للايجاز في الحديث عن الحذف فضلا عن أنه ربما يكون قد ادرك أن تقدير المحذوف - في مواضع منه - يزيل جمال النص ويخرجه عن المعنى الذي اريد به. وهنا نستعرض معه الشواهد لنتحسس من خلال تحليلها - بلاغة الحذف فيها بوصف الإيجاز قسماً من البلاغة التي تشكل ركناً اساسياً في الإعجاز عند الرماني.

اولاً: في قوله تعالى: ﴿ **وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ** ﴾[3] نجد أن المراد: واسأل اهل القرية إلاّ أن المضاف قد حذف للايجاز والاختصار، وقيل أن المعنى ((واسأل القرية والعير والجدران والحيطان فانها تجيبك وتذكر لك صحة ماذكرناه لانك من اكابر انبياء الله فلا يبعد أن ينطق الله هذه الجمادات))[4] ونعود إلى دلالة الحال التي أشار إليها الرماني في تعريف الحذف لنجد في هذه الآية أن المقام الذي فيه اخوة يوسف قد وضعهم في سياق المبالغة لازالة التهمة عن انفسهم، وكأنهم اسرعوا فأوجزوا الكلام ليثبتوا صدقهم ويزيلوا الشك عنهم فسقط اللفظ المحذوف من اجل ذلك، وهكذا يتجلى البعد النفسي في هذا الإسراع الذي دل عليه الإيجاز، فالاية قد اظهرت فائدة الحذف لفظاً ومعنى وهي موقعه في النفس، إذ النفس تميل إلى الإيجاز لفظاً، فجاء الحذف ليوقع في نفس ابيهم هذا الثقل الذي يكمن في سؤال القرية

(1) نحو القرآن / د. احمد عبد الستار الجواري / 26.
(2) =: ر / 78.
(3) سورة يوسف: من 82.
(4) التفسير الكبير: 190/18.

عن صدقهم لكي لايبقى في نفسه شك ولايحاورهم بهذا الامر، واذا كان اهل القرية يتفاوتون في الاجابة، فالقرية تجيب اجابة واحدة تخلو من التفاوت فيستقر ما ارادوه من قولهم هذا في نفس ابيهم، وقد افاد الحذف أيضاً أن الامر بلغ الغاية من الوضوح والصدق فاسال القرية أو اهلها، وتتجلى روعة النظم القرآني هنا في أنه إن حمل على المجاز المرسل - بعلاقة المحلية - كان صحيحاً وأن حمل على الحقيقة كان رائعاً، وهكذا تظهر بلاغة هذا الحذف وبعده النفسي وقد ابدع ابن جني حين أثر حمل الآية على المجاز الذي يشتمل عنده على معان ثلاثة هي (الاتساع والتوكيد والتشبيه) إذ يقول: ((أمّا الاتساع فلأنه استعمل لفظ السؤال مع ما لايصح في الحقيقة سؤاله... واما التشبيه فلأنها شبهت بمن يصح سؤاله لما كان بها ومؤلفا لها، واما التوكيد فلأنه في ظاهر اللفظ احالة بالسؤال على من ليس من عادته الاجابة، فكأنهم تضمنوا لابيهم أنه أن سأل الجمادات انبأته بصحة قولهم وهذا تناه في تصحيح الخبر، أي لو سألتها لانطقها الله بصدقنا فكيف لو سألت من من عادته الجواب))[1].

ثانياً: وفي قوله تعالى: ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ﴾[2]، بعد أن اذن الله للمسلمين بمعاهدة المشركين، اتفق المسلمون مع الرسول ﷺ وعاهدوهم، لكن المشركين نقضوا العهد، فأوجب الله النبذ اليهم، وخوطب المسلمون بهذا الخطاب المحمل بالتحذير، والذي لم يسبق بالبسملة بخلاف سائر السور، وتتصدر لفظة (براءة) الآية لتعلم المسلمين قبل كل شيء بوجوب التبرؤ من العهود التي بينهم وبين الكفار البادئين بالنقض[3]، والبراءة هنا خطاب للمسلمين بأن الله ورسوله قد برئا مما عاهدتم من المشركين، وهذه اللفظة جاءت في افتتاح السورة ((كما تفتتح العهود وصكوك العقود بأدل كلمة على الغرض الذي يراد منها))[4] وقد جاءت اللفظة نكرة، والتنكير هنا تنكير التنويع للاشارة إلى أن هذا النوع كاف في فهم المقصود[5].كما يتضمن هذا التنكير معنى الشمولية والتعظيم، فهي براءة تشمل كل انواع العهود والمواثيق التي بينهم ولايمكن الاستهانة بوجوب الالتزام بها، وهكذا تستقر هذه

(1) الخصائص: 2 / 447.
(2) سورة التوبة: من 1.
(3) =: التفسير الكبير: 15 / 217، والتحرير والتنوير: 10 / 102، وفي ظلال القرآن: 4 / 115.
(4) التحرير والتنوير: 10 / 102.
(5) =: م ن: 10 / 103.

اللفظة في اسماع المسلمين فتحدث اثرها ومعناها في نفوسهم فيمتثلوا، وتقرع اسماء المشركين فتصيبهم برعب وغم وندم على ذلك النقض بما تحمله من غضب الله، وهم الذين يستحقونه جزاء ذلك النقص[1] ولاشك أن حذف المبتدأ الذي قدر بـ (هذه) هو الذي منح هذه اللفظة تلك الدلالات العميقة وحقق اغراضاً لاتتحقق لولا الحذف ومنها المفاجأة والصرخة التي تصب على الاسماع عند قراءتها، والأمر بوجوب تنفيذها ووجوب الامتثال لهذا الامر.

ثالثاً: وفي قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ [2] يقول الرماني: ((كأنه قيل لكان هذا القرآن))[3] وهو مانجده في تقدير الجواب عند اكثر المفسرين أيضاً[4]، كما أن حذف الجواب في الآية ((يفيد معنى تعريضياً بالنداء عليهم بنهاية ضلالهم))[5] والسياق الذي جاءت فيه الآية يعرض شيئاً عن الكافرين الذين لاتكفيهم آيات الله في هذا الكون، ولايكفيهم هذا القرآن، لذلك طلبوا آية! وكان جواب طلبهم بيان اسباب الهدى واسباب الضلال وعرضاً لصورة المؤمنين المطمئنة قلوبهم بذكر الله وقرآنه، هذا القرآن الذي لاتضاهيه آية مما يطلبون، ويتحسس القارىء لهذه الآية يبحث عن جواب، وتشد النفس نشاطها لتستقبل الجواب حتى إذا لم تجده، تحرك الوجدان وطاف الفكر والخيال بعيداً ليتصور عظمة هذا القرآن بهذه الصفات وتذهب النفس في اتجاهات مختلفة تبحث عن الجزء المكمل لهذه الصورة، وتتزاحم في مخيلة السامع أشياء كثيرة لم تكن لتظهر لو ذكر الجواب المحذوف، لأن النفس تستقر بذكره وتتقيد.

رابعاً: الشاهد الآخر لايجاز الحذف عند الرماني، قوله تعالى: ﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا ﴾ [6].

نتأمل ألفاظ التعبير القرآني في هذه الآية لننهل من عمق الدلالة، ونذهب بخيالنا مع هذه الألفاظ في رحلة إلى مشهد من مشاهد القيامة، ولابد لنا من تحليل السياق الذي ورد فيه

(1) = : الإعجاز الفني في القرآن، د. عمر السلامي / 94.
(2) سورة الرعد: من 31.
(3) ر / 76.
(4) =: تفسير القرآن العظيم: 2 / 515، والمحرر الوجيز: 8 / 171.
(5) التحرير والتنوير: 13 / 143.
(6) سورة الزمر: من 73.

الحذف، ((لأن دراسة سياق الشاهد مهم جداً، ولان الترابط بين الخصائص ليوضح بعضها بعضاً مهم جداً، ودراسة الصياغة ودلالات التراكيب ينبغي أن تكون مقدمة لدراسة كل صورة من صور البيان لانها هي الخطوط التي تتكون منها هذه الصور))[1].

تبدأ الآية بلفظة (سيق) بصيغة المبني للمجهول، وهذه الصيغة اعتمدت هنا للتركيز على الحدث بصرف النظر عن محدثه لاسيما وأن الآية جاءت في سياق يعرض مقابلة بين مشهدين من مشاهد القيامة، فبعد عرض احوال الكافرين وسوقهم إلى جهنم، جاء عرض احوال المؤمنين وسوقهم إلى الجنة، فتصدرت لفظة (سيق) المشهدين، ولكن شتان مابين سوق المشهدين، ((فسوق اهل النار طردهم إليها بالهوان والعنف كما يفعل بالاسارى والخارجين على السلطان إذا سيقوا إلى حبس أو قتل، والمراد بسوق اهل الجنة سوق مراكبهم لأنه لايذهب بهم إلاّ راكبين وحثها اسراعا بهم إلى دار الكرامة والرضوان كما يفعل بمن يشرف ويكرم من الوافدين على بعض الملوك))[2]، واذا كانت لفظة (سيق) توحي بالقوة والشدة مع الكافرين، فهي في الشاهد توحي ببقاء المحبة والصداقة بين المتقين يوم القيامة كما قال تعالى: ﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴾[3] فلا يدخلونها فرادى بل مجتمعين، والتعبير بصيغة المبني للمجهول في القرآن الكريم لاسيما في مشاهد الاخرة - فيه ايحاء بجلال العظمة الالهية والقدرة العظيمة، كما يدل على التلقائية التي يكون بها الكون مهيأ يومئذ للحدث الخطير[4] وتوحي هذه اللفظة أيضاً أن احداث ذلك اليوم واقعة واقعة لامحالة مهما يطل الزمان، وكثيراً مايعبر النظم القرآني عن المستقبل بلفظ الماضي لتأكيد تحقق الحدث وانه في حكم الواقع، كما أن ذلك يضع الصورة أمام المتلقي وكأنها قد حدثت وشوهدت لتستقر في النفس فتزيد المؤمنين ايماناً وتدخل في قلوب المشركين الرعب.

وتذكر في الايتين لفظة (زمراً) وشتان مابين الزمرتين، فزمرة يجمعها الكفر وتمني العذاب كل لصاحبه، وزمرة يجمعها الايمان، ثم لفظة (حتى) هذه اللفظة التي تكاد النفس تنقبض عند قراءتها أو سماعها، و (حتى) مع (إذا) قد افادت الغاية والترتيب، لأن (حتى)

(1) التصوير البياني، د. محمد ابو موسى / 55 - 56.
(2) الكشاف: 3 / 411.
(3) سورة الزخرف: 67.
(4) =: المشاهد في القرآن الكريم، د. حامد صادق قنيبي / 409.

الابتدائية تدخل على جملة مضمونها غاية لشيء قبلها[1] والتقدير المعنوي في جمع الغاية والابتداء، أن الغاية هنا انتهاء السوق عن المجيء والوصول، والابتداء هو ابتداء العذاب في الاولى وابتداء النعيم في الثانية، والعذاب والنعيم قد تضمنه الجواب المحذوف تفخيماً وتعظيماً ولانه لايحد بوصف. ثم قوله (إذا جاؤها) وكأنهم يتقدمون بخطى تتحسس ماتحتها بدبيب خافت وباعين تترقب لتطل إلى ما اعد لها، فاذا بجهنم تفتح للكافرين بعد أن كانت موصدة، وفي الطرف الاخر تتهلل الفرحة وتستبشر وجوه المؤمنين إذ وجدوا ابواب الجنة وقد فتحت قبل وصولهم إليها تنتظرهم بلهفة وشوق بدليل قوله تعالى: ﴿ جَنَّٰتِ عَدۡنٖ مُّفَتَّحَةٗ لَّهُمُ ٱلۡأَبۡوَٰبُ ﴾ [2]، وهكذا بحذف الجواب، كأنه قيل ((حصلوا على النعيم المقيم الذي لايشوبه التنغيص والتكدير))[3]، ومن ثم يظهر الرماني بلاغة الحذف واثره في النفس إذ يقول: ((صار الحذف في مثل هذا ابلغ من الذكر لأن النفس تذهب فيه كل مذهب ولو ذكر الجواب لقصر على الوجه الذي تضمنه البيان))[4]، ومن هنا يمكن لنا أن نربط بين الغموض بوصفه بعداً جمالياً للحذف وبين اثره في النفس ((فللغموض اثاره النفسية خاصة في المعاني غير المحدودة والغيوب كمشاهد الحياة الأخرى، مما يجللها بشيء من الرهبة والجلال وللقرآن دقة في هذه الناحية ينبغي الاشار ة إليها، إذ أنه كثيراً مايترك جوانب الصور التي تتعلق بيوم البعث والملائكة وغيرها من الكائنات العليا مطلقة غير مقيدة يحوطها الغيب ولاتكاد تلمح إلاّ خفقات تلقى ولا توضح الامر))[5]، وهكذا يكون لايجاز الحذف بعدٌ نفسيٌ يتمثل بالتوسع في الدلالة الايحائية إذ يفتح المجال واسعاً امام الذهن في التصور، وقد حذف الجواب هنا ((لأنه في صفة اهل الجنة فدل بحذفه على أنه شيء لايحيط به الوصف))[6]، ومنه أيضاً مما لم يذكره الرماني قوله تعالى: ﴿ مَّثَلُ ٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ ﴾ [7] وقوله تعالى: ﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا

(1) =: الجنى الداني / 363 و 500 و 503 و 505.
(2) سورة ص: 50.
(3) ر / 76 - 77.
(4) ر / 77.
(5) اثر القرآن في تطور النقد العربي / 119.
(6) الكشاف: 3 / 411.
(7) سورة الرعد: من 35.

أَنْهَارٌ ﴾[1] فقد حذف المثل هنا لأن صفة الجنة شيء لايحيط به الوصف ولايضاهيه مثل فكان حذفه ابلغ من ذكره[2].

وهكذا يضيف الرماني هنا لمحة من لمحات الذوق لم نجدها عند السابقين له، إلاّ ما اشرنا إليه عند الجاحظ وما المح إليه ابن قتيبة في مسألة الغموض في الحذف، وقد سبق ذكرها[3]، ولاتقارن تلك الاشارات بما جاء به الرماني هنا لاسيما أن الجاحظ كان قد تحدث تحدث عن ميل النفس العربية للايجاز بشكل عام، وتحدث ابن قتيبة عن الغموض الذي يحدثه الاختصار ولم يتحدث عن جماله واثره في النفس، وقد كان السابقون للرماني يكتفون بالقول أن الحذف للايجاز والاختصار ولايزيدون ((وبذلك كان الرماني من الاوائل السباقين الذين التمسوا العلة البلاغية للحذف وانها ليست في الاختصار فقط وانما هو امر نفسي بحت يجعل مجال الاحساس والشعور متسعاً امام السامع فيتوهم كثيراً من الأشياء التي يحتمل أن يحمل معانيها اللفظ المحذوف والمفهوم من الكلام من في آن واحد ويشير إليها... وعبارة الرماني الخاطفة الموجزة في بيان سر بلاغة الحذف كانت عزيزة المنال في وقتها ولها قيمتها))[4].

ثانيا: إيجاز القصر

وحده عند الرماني ((بنية الكلام على تقليل اللفظ وتكثير المعنى من غير حذف))[5]، ويقول أيضاً ((احضار المعنى بأقل مايمكن من العبارة))[6]. واذا كنا قد اشرنا إلى أن هذا المعنى قد ورد عند السابقين للرماني لاسيما ((الجاحظ وابن قتيبة والمبرد وقدامة))[7] فلا بد بد من القول أن ابا الحسن هو أول من اطلق هذه التسمية لهذا النوع من الإيجاز[8]. وقد احسن بوضع حده إذا جعل بنية الكلام من أول امره قائمة على اللفظ القليل المتضمن للمعنى الكثير دون اللجوء إلى الحذف أو الاضمار أو الاسقاط، لذلك كان ادق من إيجاز

(1) سورة محمد: من 15.
(2) =: الامثال في القرآن، محمد جابر الفياض / 424 - 425.
(3) =: ص من هذه الرسالة.
(4) اثر النحاة في البحث البلاغي / 243 - 244.
(5) ر / 76.
(6) ر / 79.
(7) =: على الترتيب: البيان والتبيين: 1 / 83 و 2 / 16 و 17 و 28 والحيوان: 3 / 86، وتأويل مشكل القرآن / 3 و ادب الكاتب / 15 - 16 والبلاغة / 92، ونقد الشعر / 174.
(8) =: اثر النحاة في البحث البلاغي / 245.

الحذف ((لأن الحذف يعني أن العبارة جرت على المعنى وامتدت بامتداده ثم سقط جزء منها واقيم عليه الدليل أمّا القصر فهو تطويع المعنى الكثير في بنية لفظية قليلة))[1]، ولاشك أن إيجاز القصر يرتبط بالتضمين ارتباطاً وثيقاً لأن اللفظ فيه يدل على معنى ويوميء بثان وثالث، وهذا مانجده في الشواهد التي يوردها الرماني في هذا النوع من الإيجاز.

الغموض في إيجاز القصر:

إذا كان الغموض في إيجاز الحذف قد عد جمالا فان إيجاز القصر عند الرماني ((اغمض من الحذف))[2] لأن في الأول يبقى مايشير إلى المحذوف من الحال أو فحوى الكلام، ولانجد ذلك في القصر إذ هو ((تضمين العبارات القصيرة معاني كثيرة من غير حذف، فالالفاظ تتفجر منها شحنات نفسية ودلالات هامشية تتآزر في بيان المضمون))[3]، وينبثق غموض القصر من عمق معانيه وتعددها فضلا عن الاسلوب الذي يعتمد على أشياء يضم بعضها إلى بعض فتكسب الاسلوب جمالا ورونقاً وعمقاً يدعو للتأمل والتدبر، وقد أشار الرماني إلى ذلك[4]. ومن هنا يكون الغموض جمالا إذ يطلق للنفس العنان في استبطان استبطان النصوص وسبر اغوار الألفاظ وعبور اسوارها للوصول إلى معنى المعنى أو المعاني المتعددة، وينبع هذا الجمال من كون ((المعنى المستتر بنقاب رقيق من الصنعة أو الفن يشبه نقاب الغانية، اجمل من المعنى السافر المكشوف، لأن في بعض الوضوح ماتكرهه النفس الانسانية أو تسرع بالملال منه، وفي الظهور والوضوح ابتذال وبهرجة تعافها النفس وتنصرف عنها الهمم))[5] ولاشك أن جمال غموض القصر يكمن في اتاحة الغموض للنفس أن تتذوق ايحاءات الكلمات في الجمل، والجمل في الفقر، وللوجدان أن يتفاعل مع المعنى المصور والفكرة الشاخصة، وللذهن أن يبحث في اجزاء النظم، وهكذا يكون الغموض مثاراً للاستدعاء المعنوي ومثاراً لحواس السامع ومشاعره[6].

شواهد إيجاز القصر عند الرماني:

(1) الإعجاز البلاغي / 93.
(2) ر / 77.
(3) المعاني في ضوء أساليب القرآن / 350.
(4) =: ر / 78.
(5) اثر القرآن في تطور النقد العربي / 119.
(6) =: بلاغة القرآن بين الفن والتاريخ، د. فتحي احمد عامر / 86.

إن الشواهد التي يعرضها الرماني هي ذاتها التي اوردها السابقون له في هذا الميدان، لاسيما الشاهد الأول:

أولاً: قوله تعالى: ﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [1].

واتباعاً لمنهجه يعقد الرماني موازنة بين الآية وبين قولهم (القتل انفى للقتل) ليؤكد جانباً من بلاغة الإيجاز في القرآن الكريم، ولم يكن الرماني أول من عقد هذه الموازنة كما لم يكن الاخير وانما سبقه في ذلك ابن قتيبة[2] والمبرد[3] وقد ذهب الدكتور عمر الملا حويش إلى أن الرماني قد انفرد في هذا اللون من الدراسة الفنية ولم يسبق لاحد قبله ولا من معاصريه أن تعرض لمثل ماجاء به لذلك وضع الرماني في عداد من وضعوا اسس المدرسة الادبية في دراسة البلاغة[4] والحق إن الرماني يوازن بين أسلوب القرآن واسلوب كلام العرب الادبي في كل أقسام البلاغة في نكته تقريباً، ومن هنا يمكن أن يعد ممن شاركوا في تأسيس المدرسة الادبية في دراسة البلاغة ولكنه ليس الأول ولا الوحيد في هذا الميدان. ويبدأ الرماني موازنته بالقول: ((وقد استحسن الناس من الإيجاز قولهم: القتل انفى للقتل، وبينه وبين لفظ القرآن تفاوت في البلاغة والايجاز))[5] ويظهر ذلك التفاوت في البلاغة والايجاز عند الرماني في اربعة اوجه هي:

الوجه الأول: يقول فيه ((أمّا الكثرة في الفائدة فيه، ففيه كل ما في قولهم القتل انفى للقتل، وزيادة معان، منها ابانة العدل لذكره القصاص، ومنها ابانة الغرض المرغوب فيه لذكره الحياة، ومنها الاستدعاء بالرغبة والرهبة لحكم الله به))[6]. ولاشك أن الرماني في هذا الوجه يظهر الجانب المعنوي من بلاغة إيجاز القصر، فالاية بهذا النظم الموجز البليغ قد تضمنت كل ماتضمنه قولهم من معان، وتضمنت معاني أخرى لاتفي الفاظهم بادائها من ذلك:

(1) سورة البقرة: 179.
(2) =: تأويل مشكل القرآن / 80.
(3) =: البلاغة / 92.
(4) =: تطور دراسات إعجاز القرآن / 323.
(5) ر / 77.
(6) ر / 77 - 78.

أ - (ابانة العدل) والتي تتمثل في ذكر القصاص، والعدل هنا هو العدل الالهي، وهو الاصل الثاني من الاصول التي اشتهر بها المعتزلة وسموا من اجله بـ (العدلية)[1]. ولاشك أن لفظة (القصاص) كناية عن الموت المستحق أو الجزاء الذي يوجبه العدل فضلاً عن أن القصاص قتل مقيد لاقتل مطلق[2]. ولفظة القصاص هنا تشمل القصاص في الاعضاء وفي النفس وهو مايدخل في العدل ولايتضمنه قولهم.

ب-(إبانة الغرض المرغوب فيه لذكره الحياة) فالقصاص لم يكن انتقاماً أو ثأراً وانما صورته الآية بأنه (حياة)، أي حياة ! هذه اللفظة بصيغة التنكير تدل على حياة خاصة فاذا علم الانسان أنه ((إذا قَتَلَ قُتل ارتدع بذلك عن القتل فسلم صاحبه، وصارت حياة هذا المهموم بقتله في مستأنف الوقت مستفادة بالقصاص، وصار كأنه قد حيي في باقي عمره به أي بالقصاص))[3]، والتنكير هنا للتعظيم أيضاً، إذ أن الحياة هنا تنبثق من احجام القاتل عن القتل عند الشروع به، ومادامت الحياة هنا هي الغرض المرغوب فيه لكلا الطرفين كان تنكيرها هنا تعظيماً لها، فهي على معناها الاشمل والأعم، فالاعتداء على حياة فرد اعتداء على الحياة كلها، فاذا كف القصاص الجاني كان في هذا الكف حياة مطلقة لاتختص بفرد أو اسرة أو جماعة بل هي حياة[4]... فلما كانت الحياة هي الغرض المرغوب فيه ونفي القتل إنما يراد لحصول الحياة كان ذكرها اولى وابلغ من ذكر القتل لاسيما أن النفس تميل إليها وتتقبل لفظها اكثر من لفظة القتل.

جـ-(الاستدعاء بالرغبة والرهبة لحكم الله) ويتمثل ذلك أيضاً في ذكر (القصاص حياة)، ففي القصاص رهبة تستدعي الكف عن الاعتداء عند الهم به حين يتذكر الجاني أن مايفعله عائداً عليه بالمثل، وفي (حياة) رغبة تستدعيه للكف عن فعلته التي يريد، كما تستدعي اللفظتان من يريد الثأثر أن يكف عن ذلك ليجد في القصاص شفاء لما في صدره من الحقد والرغبة في الثأر، ويجد في (حياة)، الغرض المرغوب فيه

(1) =: شرح الاصول الخمسة، للقاضي عبد الجبار / 301، الاتجاه العقلي في التفسير / 215، بلاغة الكلمة والجملة والجمل / 195.
(2) =: تحرير التحبير: 3 / 468، وحي القلم، للرافعي: 3 / 471.
(3) دلائل الإعجاز / 278.
(4) =: في ظلال القرآن: 2 / 235.

بعد القصاص إن وقع القتل، في حين أن قولهم لايتضمن ذلك، ولاشك أن تعريف لفظة (القصاص) افاد التمييز بالمساواة اولا، وافاد الشمول للقتل والاعضاء ثانيا، كما تشمل اخذ الدية والعفو[1] أيضاً، ولا يتضمن قولهم ذلك، وعلى الرغم من هذه الشمولية فان التعريف افاد التقييد أيضاً فالقصاص ((مقيد بقيوده الكثيرة إذ هو في الحقيقة قوة من قوى التدبير الانسانية فلا تصلح الانسانية بغير تقييدها))[2].

والقصاص مأخوذ من قص الأثر وهو اتباعه ومنه القاص لأنه يتبع الاثار والاخبار وقص الشعر اتباع اثره فكأن الجاني سلك طريقاً فقص اثره فيها ومشى على سبيله في ذلك[3] كما أن أصل القص: القطع... وقيل إن القصاص في الجراح مأخوذ من هذا[4] ولاشك أن الرماني حين يشير إلى الرغبة والرهبة فانه يظهر جزءاً من بلاغة إيجاز القصر في هذه الآية إذ تجمع بين اسلوبين في الدعوة للاستجابة به لحكم الله، الرغبة في طاعة الله وفي الحياة، والرهبة من عقاب الله ومن القصاص، وروعة الجمع بين الرغبة والرهبة منبثقة من

((الطباق في (القصاص حياة) لأن القصاص موت))[5] وهكذا تقابل الرغبة الرهبة، وتقابل الحياة الموت وهو طباق معنوي، وثمة ملحظ آخر وهو المبالغة والتعظيم، إذ إن جزءاً من الحياة قد استقر في الموت المتمثل بالقصاص ولانجد ذلك في قولهم (القتل انفى للقتل).

الوجه الثاني: يقول الرماني ((الإيجاز في العبارة فان الذي هو نظير - القتل انفى للقتل - قوله (القصاص حياة) والاول اربعة عشر حرفاً والثاني عشرة احرف))[6]. واذا كان الرماني هنا قد عد قلة عدد الحروف جزءاً من بلاغة إيجاز القصر فانه لم يطلق ذلك حكماً عاماً في كل شاهد لهذا النوع من الإيجاز ولم يجعله مقياساً ثابتاً بدليل ما اورده بعد ذلك من بعض مزايا التركيب الموجز والتي يظهر باجتماعها الإعجاز، إذ يزيد إلى الإيجاز حسن الرونق وعذوبة اللفظ وصحة المعنى[7]، فضلا عن أنه قد جعل المعنى وسلامته هو

(1) =: وحي القلم: 3 / 472.
(2) م ن: 3 / 472.
(3) =: ل: 7 / 74 مادة (قص)، والجامع لاحكام القرآن: 2 / 245.
(4) =: ل: 7 / 76 مادة (قص).
(5) تحرير التحبير: 3 / 468.
(6) ر / 78.
(7) ر / 78.

الاساس إذ أكد في تعريفه للإيجاز على حسن البيان، فقلة عدد الحروف هنا تعد بلاغة إذ تضم مع قلتها معاني كثيرة، ولم يكن الرماني هو أول من عد قلة عدد الحروف وكثرة معانيها جزءاً من بلاغة الإيجاز فقد سبقه في ذلك الجاحظ[1].

وقد ذهب الدكتور عبد القادر حسين[2] إلى أن ابن جني قد رد على الرماني بقوله ((والاطالة والايجاز جميعاً إنما هما في كل كلام مفيد مستقل بنفسه، ولو بلغ بها الإيجاز غايته لم يكن له بد من أن يعطيك تمامه وفائدته مع أنه لابد فيه من تركيب الجملة، فان نقصت عن ذلك لم يكن هناك استحسان ولا استعذاب... كقولهم (قلنا لها قفي قالت قاف) فان هذا القدر من النطق لايعذب ولايجفو ولايرق ولاينبو....))[3] والحق اننا لانجد فيه رداً بدليل ما أثبتناه فضلا عن أن ماذكره ابن جني يدخل في باب الغموض والتعقيد ولايدخل في إيجاز القصر.

الوجه الثالث: يقول الرماني فيه: ((بعده من الكلفة بالتكرير الذي فيه على النفس مشقة فإن في قولهم القتل انفى للقتل تكريراً غيره ابلغ منه ومتى كان التكرير كذلك فهو مقصر في باب البلاغة من اعلى طبقة))[4]، وهنا يظهر الرماني جزءاً من الأثر النفسي للايجاز إذ يشير إلى أن النفس لاتميل إلى التكرار بل تجد فيه مشقة وعناء، وكأنه يمهد للقول بأن التكرار جزء من التطويل، لاسيما إذا كان تكراراً للفظة بعينها في عبارة واحدة.

الوجه الرابع: يقول فيه: ((واما الحسن بتأليف الحروف المتلائمة فهو مدرك بالحس وموجود في اللفظ فان الخروج من الفاء إلى اللام اعدل من الخروج من اللام إلى الهمزة لبعد الهمزة من اللام وكذلك الخروج من الصاد إلى الحاء اعدل من الخروج من الالف إلى اللام))[5] وكأنه هنا يمهد الحديث عن قسم التلاؤم الذي يعده من أقسام البلاغة المعجزة، ولاشك أن الفرق واضح بين تلاؤم الحروف وحسن تأليفها في الآية وبين ثقلها في القول المذكور، وهذا الثقل عند الرماني منبثق من التباعد في المخارج والذي سيفصل القول فيه في قسم التلاؤم، ولاريب أن للثروة العلمية التي امتلكها الرجل أثراً بالغاً في هذه الالتفاتة

(1) =: البيان والتبيين: 2 / 16 - 17.
(2) =: اثر النحاة في البحث البلاغي / 287.
(3) الخصائص: 1 / 30 - 31.
(4) ر / 78.
(5) ر / 78.

التي تتصل بالبناء الصوتي، فضلا عن الذوق والاحساس المرهف في ادارك القيمة الجمالية لجرس الألفاظ واصوات الحروف.

واذا كان الرماني قد سبق الاخرين في اظهار بلاغة الآية من هذه الوجوه فقد نقل الاخرون عنه ذلك، ومنهم من زاد عليه وجوهاً كثيرة، من ذلك مانجده عند (العسكري (ت395 هـ) وابن سنان الخفاجي والرازي وابن ابي الاصبع المصري والزركشي)[1] ونعود إلى الآية لنتأمل جزءاً آخر من بلاغتها المعجزة، لنجد في لفظة (لكم) تخصيصاً للعناية بالمؤمنين بدليل قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ ﴾ [2] وزاد هذا التخصيص تخصيصاً اخر بقوله تعالى: ﴿ يَاأُوْلِي الأَلْبَابِ ﴾ إذ نبه بحرف النداء على التامل في حكمة القصاص ((وخص اولي الالباب بالذكر تنبيهاً عليهم لانهم العارفون القابلون للاوامر والنواهي وغيرهم تبع لهم))[3] فاذا هم امتثلوا كان الاجدر بالعامة أن تتبعهم بالامتثال. ويقرر مرة أخرى مبدأ العدل والانصاف بقوله تعالى: ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ أي لتتقوا ولاتتجاوزا فتسلموا من القصاص ويكون ذلك داعية لانواع التقوى في غير ذلك[4] فما تدركه العقول يزكو في القلوب، وتفيض في الانسان تقوى تحرسه وتكفه عن مواضع الحدود، وهكذا تتجلى في هذه الآية قاعدة من قواعد الامن والعدالة في المجتمع الاسلامي، وبلاغة إيجاز القصر في هذه الآية تتجلى في القيم والالوان البلاغية التي جمعتها الآية فضمت إلى جانب الإيجاز، الكناية، والطباق، والبعد عن التكرار، وحسن البيان المتمثل في احتواء كل لفظة من هذا الكلام محاسن عديدة، فضلا عن أن الآية جاءت ((تذييلاً لهذه الاحكام الكبرى اطمانت به نفوس الفريقين، اولياء الدم والقاتلين في قبول احكام القصاص))[5]، وليس هذا فحسب إذ هناك أشياء تبقى ابعد من الذي قلناه ربما تكون من ادق ادق اسرارها وانفذ اشاراتها والله اعلم بذلك. **ثانياً:** الشاهد الثاني من شواهد إيجاز القصر عند الرماني قوله تعالى: ﴿ يَحۡسَبُونَ كُلَّ صَيۡحَةٍ عَلَيۡهِمۡۚ هُمُ ٱلۡعَدُوُّ فَٱحۡذَرۡهُمۡ ﴾ [6] والحديث هنا عن

(1) =: على الترتيب: كتاب الصناعتين / 195، سر الفصاحة / 245 - 246، نهاية الإيجاز / 176، تحرير التحبير: 3 / 468، البرهان في علوم القرآن: 3 / 223 - 225.
(2) سورة البقرة: من 178.
(3) المحرر الوجيز: 2 / 91.
(4) =: الجامع لاحكام القرآن: 2 / 257.
(5) التحرير والتنوير: 2 / 144.
(6) سورة المنافقون: من 4.

المنافقين إذ تصورهم ألفاظ الآية بمشهد ذي بعدين، يتمثل الأول بصورة هؤلاء المنافقين وهم يتلفتون بحذر وخوف من كل مايحيط بهم من حركة وصوت، ويتمثل الثاني بايجازه الضغائن والاحقاد التي بداخلهم فضلا عن الذعر الذي يتجلى في هلعهم إذا ما سمعوا ((مناد في العسكر أو انفلتت دابة أو انشدت ضالة ظنوه ايقاعا بهم))[1]، فالايجاز قد صور لنا هذا الفزع المتكرر في قلوبهم الوجلة، فضلا عن اظهارهم بصفة الجبن والضعف، وقوله (عليهم) افاد الاستعلاء والشمول، إذ إن المنافقين في هذه الصورة كأن الصوت الذي يسمعونه يصب عليهم ويشملهم لفرط خوفهم وشدة ارتباكهم. ثم قوله (هم العدو) هكذا دون عطف وبتعريف (العدو) بعد الضمير المنفصل افاد معنى القصر بتمييزهم أولا، لانهم يختفون خلف ستار التظاهر والتملق، وبأنهم ((الكاملون في العداوة لأن اعدى الاعداء العدو المداجي الذي يكاشرك وتحت ضلوعه الداء الدوي))[2] ثانيا، و (ال) الجنسية ((هي التي ترد لشمول خصائص الجنس على سبيل المبالغة))[3]، وقد يكون التعريف هنا افاد تعظيم خطرهم وتوكيده - فضلا عن التوكيد بالضمير - فخطر العدو المختبيء في صفوف المسلمين اعظم من خطر العدو الخارجي المعروف لذلك قال تعالى: (فاحذرهم) فهذه اللفظة تجمع كل انواع الحذر من هذا النوع من الاعداء، فلا يخدع بظاهرهم ولايكشف لهم سراً ولايشركهم في امر يكون فيه مصير المسلمين وغير ذلك، والتحذير هنا دلالة على عظمة خطورتهم وقد تقدم قوله (هم العدو) على الامر بالحذر ليفيد التنبيه، وجاءت الفاء عاطفة لتفيد وجوب سرعة الامتثال للامر، وقد طوى ذكر الفعل المعطوف عليه بتقدير (تنبه) وذلك جزء من روعة الإيجاز وبلاغته.

ثالثاً: الشاهد الثالث من شواهد إيجاز القصر عند الرماني قوله تعالى: ﴿ **إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم** ﴾ [4] والاية تظهر صفة من صفات ﴿ **مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ** ﴾ [5] فهو يذكر الله ساعة الكربة والعسر، ويعود للطغيان والفساد والبغي ساعة الرخاء واليسر، والسياق للاية صور هذه الصفة تصويراً رائعاً يبدأ بهدوء وسكينة ثم يمتلأ حركة واضطراباً وهولاً

(1) الكشاف: 4 / 109.
(2) م ن: 4 / 109.
(3) الجنى الداني / 217.
(4) سورة يونس: من 23.
(5) سورة الحج: من 11.

متلاطماً، ويعود هادئاً مطمئناً ساكناً، وكل ذلك في قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ [1] وتاتي الآية هذه موعظة لمن كانت هذه صفته، وتهديداً عليه بعودة وبال الشرك والبغي عليه فقط، وايجاز القصر الذي يتمثل بقلة الألفاظ وكثرة المعاني بدا هنا باسلوب القصر بـ (إنما) لقصر البغي وتخصيص وباله وضرره عليهم، ولفظة (البغي) هنا واسعة الدلالة إذ تنبيء بالافراط ومجاوزة المقدار الذي هو الحد، وهذا الافراط يتمثل بتكرار الشرك والفساد في ساعات الرخاء واليسر، كما أن سعة الدلالة تتمثل في انها تشمل بغي الانسان على نفسه اولا ((بايرادها موارد التهلكة والزج بها في ركب الندامة الخاسر))[2] وتشمل بغي الانسان وظلمه لاخيه الانسان ثانيا، هذا الظلم والبغي الذي صور القرآن عظمته بأنه يكون عاماً وشاملاً للناس جميعاً وأن اختص بنفس واحدة، قال تعالى: ﴿ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ﴾ [3] فالناس نفس واحدة، وتشمل لفظة (البغي) أيضاً بغي الناس بعضهم على بعض كما تشمل قبل هذا أو ذاك، المعنى الأول وهو الشرك والضلال ونسيان الله ونكران نعمه وجحودها في ساعة اليسر والرخاء، ولاشك أن للاطلاق والتعميم بالخطاب في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم ﴾ [4]، واسلوب الالتفات من الغائب إلى المخاطب، وكذلك التنبيه بالنداء أثراً بالغاً في اظهار اهمية ماتحتويه الآية من الموعظة والتهديد، أمّا لفظة (على) فقد افادت الاستعلاء المجازي المكنى به عن الاضرار[5]، والمعنى أن وباله عائد عليكم على طريق المجاز المرسل بعلاقة السببية لأن البغي لايقع على الانفس وانما هو الوبال فالبغي هو السبب[6] فالقصر اوجز ذلك وحقق بقوله (على انفسكم) دلالات متعددة تتمثل الاولى بأن وبال بغيهم عائد عليهم ولايضرونه بشيء، وتتمثل الثانية بأن المراد بالانفس انفس الباغين لا انفس الناس جميعاً، وهنالك دلالة أخرى وهي أن وبال البغي قد يكون في الحياة الدنيا بانواع بلائها ومصائبها، وقد يكون في

(1) سورة يونس: 22 - 23.
(2) في ظلال القرآن: 11 / 404.
(3) سورة المائدة: من 32.
(4) سورة يونس / من 23.
(5) =: التحرير والتنوير: 11 / 139.
(6) =: الجدول في اعراب القرآن وصرفه وبيانه، محمود صافي: 11 / 106.

الاخرة بانواع عذابها واهوالها، ولكي لايظن الجاهل أن زينة الحياة الدنيا وتمتعه فيها نجاة من وبال بغيه قال تعالى بعد ذلك: ﴿ مَّتَٰعَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ ثُمَّ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُكُمۡ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾ ، وهكذا تبقى الآية خالدة ابد الدهر حكماً ثابتا ينذر الناس برهبة لاحدود لها ويرغبهم بالهداية وذكر الله وعدم الاشراك به.

رابعاً: الشاهد الرابع من شواهد إيجاز القصر عند الرماني قوله تعالى: ﴿ وَلَا يَحِيقُ ٱلۡمَكۡرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهۡلِهِۦ ﴾ [1]، ويتجلى في هذه الآية أيضاً حكم ثابت وقاعدة من قواعد العدالة الالهية في الحياة الدنيا وفي الاخرة، إذ يعرض السياق خيبة كفار مكة الذين عزموا على قتل النبي ﷺ، فلم يحق مكرهم الابهم حيث قتلوا يوم بدر وغيره من المواقع[2]، فجاءت الآية لتخاطب من خلال هؤلاء البشرية جمعاء بخطاب ملؤه العدالة، ويبقى خالداً في الحياة الدنيا والاخرة، وكأن الآية جاءت جواباً لسؤال سائل عن مصير هؤلاء الكافرين، فجاء الجواب سريعاً موجزاً بلفظه مبيناً مصيرهم ومصير من كان على صفتهم، ومؤذناً بعدالة الجزاء وواصفاً اهل المكر بهذه الصورة وكأنهم متلبسون بوبال هذا المكر في الحال والاستقبال، والاية تذييل لاحوالهم واوصافهم التي سبق ذكرها في السياق وهو مايخرج مخرج المثل، ومحملها على التذييل ليعم كل مكر وكل ماكر[3].

ونتدبر ألفاظ الآية ودقة معانيها، ولاشك أن أسلوب القصر أول ملحظ في الآية، فالقيمة الجمالية للقصر هنا - لفظاً ومعناً - أنه قام ((مقام جملتين: جملة اثبات للمقصود، وجملة نفيه عما سواه))[4] فافاد الاثبات والنفي حصر المكر السيء في اهله ونفيه عن غيرهم، واستعمل التعبير القرآني الفعل (يحيق) في حين استعمل المصدر (بغيكم) في الآية السابقة، ولاشك أن استعمال صيغة الفعل افادت دوام الاحاطة وتجددها، ((ويحيق: ينزل به شيء مكروه حاق به))[5] ولكن التعبير القرآني لم يستخدم (ينزل) ذلك أن ((النزول عام في في كل شيء، يقال نزل بالمكان ونزل به الضيف ونزل به المكروه))[6] في حين أن (يحيق)

(1) سورة فاطر: من 43.
(2) =: التفسير الكبير: 26 / 34.
(3) =: التحرير والتنوير: 22 / 335.
(4) م ن: 22 / 336.
(5) ن: 22 / 335.
(6) الفروق اللغوية / 251.

(يحيق) لايستعمل إلاّ في نزول المكروه، ثم إن لفظة (يحيق) تنبىء عن الاحاطة التي هي فوق النزول أو اللحوق[1]، وفيها من التحذير ماليس في قوله (ولاينزل) أو (ولايلحق)، فحرف المد الذي توسط (الحاء) و(القاف) يثير في النفس شعوراً بـ (الحق) الذي يعلو ويمتد حولهم من كل جانب ليغرقهم في ضر المكر السيء لاسيما أن ((اصل حاق حق لأن المضعف قد قلب إلى حرف))[2]، وقد تكون هذه الدلالة سبباً في ايثار هذه اللفظة على (يحيط) أو غيرها لقربها من الحق. ثم نتأمل لفظة (المكر)، والمكر في اللغة ((احتيال في خفية))[3] واستعملت اللفظة في التدبير على العدو، والمكر هنا لايكون فيه نفع بعكس الحيلة[4]، بل فيه غدر يتمثل في اخفاء الاذى لذلك جاء موصوفاً بـ (السيء) ليكشف هذا الاخفاء واذاه، وفي الآية إيجاز آخر وهو حذف المضاف والتقدير: ضر المكر السيء أو سوء المكر السيء كما دل عليه الفعل (يحيق)[5]، والباء في (بأهله) باء التعدية لأن (يحيق) (يحيق) مما يتعدى بالحرف، وهذه الباء تفيد مصاحبة الفاعل للمفعول[6]، وهي باقية على المعنى الأول لها وهو الإلصاق، وهكذا يكون لهذا الحرف دلالته الواسعة التي تؤكد ثبوت ضر المكر لاهله ومصاحبته لهم وشمولهم به دون غيرهم، وقد استعمل التعبير القرآني لفظة (أهل) للتأكيد على انهم اهل المكر وخاصته، واهل لوباله وضره ولم يستعمل لفظة أخرى نحو (اصحابه) أو (الماكرين) فهذه الألفاظ وغيرها لاتدل دلالة (اهله) فضلا عن انها ((إيجاز لأنه عوض عن (بالذين تقلدوه)))[7]، ثم إن قوله (إلاّ باهله) يعني تقرير ثبوت وقوعه عليهم ((أمّا في الدنيا والافي الاخرة، فعاقبته الفاسدة لهم، وإن حاق في الدنيا بغيرهم احياناً فعاقبة ذلك على اهله))[8]، ولاشك أن الآية جاءت بموقع التهديد والوعيد لكل من كانت هذه صفته في كل زمان ومكان، وتبقى الآية قاعدة من قواعد العدل الالهي في الدنيا والاخرة، ومثلها في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ﴾[9] وفي

(1) =: التفسير الكبير: 26 / 34.
(2) الفروق اللغوية / 251.
(3) ل: 5 / 183 مادة (مكر).
(4) =: الفروق اللغوية / 215.
(5) =: التحرير والتنوير: 22 / 335.
(6) =: الجنى الداني / 103.
(7) التحرير والتنوير: 22 / 336.
(8) المحرر الوجيز: 12: 65.
(9) سورة الفتح: من 10.

امثال العرب ((من حفر لاخيه جباً وقع فيه منكباً))[1] وهكذا تظهر لايجاز القصر ميزة أخرى وهي (التكثيف)[2] إذ يقوم بناء الكلام فيه على اللفظ الوجيز المتضمن معاني كثيرة ويكون قادراً على اثارة نفس المتلقي للبحث عن هذه المعاني.

وهكذا فقد اظهر الكتاب جزءاً من الاشارات التي وضعها الرماني لتحسس بلاغة الإيجاز وتذوقها، ولايظن اننا ابتعدنا عما اورده الرماني أو زدنا إليه الكثير، فكل ماتوسعنا فيه خلال تحليل شواهد الإيجاز يدخل في مزايا التركيب الموجز التي أشار إليها الرماني[3]، الرماني[3]، ونستند في كل ماذهب إليه إلى مقالة الشيخ عبد القاهر الجرجاني في وصف كلام اهل العلم بانه ((كالرمز والايماء والاشارة في خفاء، وبعضه كالتنبيه على مكامن الخبيء ليطلب، وموضع الدفين ليبحث عنه فيخرج، وكما يفتح لك الطريق إلى المطلوب لتسلكه، وتوضع لك القاعدة لتبني عليها... وانهم لئن اقصروا اللفظ لقد اطالوا المعنى وإن لم يغرقوا في النزع لقد ابعدوا على ذلك في المرمى))[4] ولاشك أن الرماني كان واحدا من هؤلاء، فلا يزال الخبيء من كلامه مكنونا ما لم نعمد اليه بالتأمل والدرس والتحليل، وتبقى البلاغة القرآنية بحراً متلاطم الامواج باغوار لاتوصف اعماقها، ويبقى وراء الذي قيل ويقال اسرارٌ دقيقة لايعلمها إلاّ الله ﷻ.

بلاغة الإيجاز عند الرماني:

لايكتفي الرماني بايراد الشواهد والتعليق عليها لاظهار بلاغة الإيجاز بنوعيه ولايكتفي بالاشارة إلى جزء من مزايا التركيب الموجز وبلاغته، بل يزيد إلى كل ذلك موازنة تكشف عن براعته وخبرته بفنون الكلام وتعمقه في دقائقه، ومعرفته بخصائص الاساليب محاولا من خلالها اظهار بلاغة الإيجاز، ونتناول هذه الموازنة بتقسيمها على ثلاثة أقسام:

اولا: الإيجاز والتقصير[5]:

(1) المستقصى في امثال العرب، للزمخشري: 2 / 354، و =: الجامع لاحكام القرآن: 14 / 359.
(2) =: الاسس النفسية لاساليب البلاغة العربية، د. مجيد عبد الحميد ناجي / 128.
(3) =: ر / 78.
(4) دلائل الإعجاز / 85.
(5) للتقصير معنى اخر وهو ((ان ينقص الشاعر من كلامه ماهو من تمامه)) البديع في البديع في نقد الشعر، اسامة بن منقذ / 293، ومنه قول عنترة:

اشرنا من قبل إلى أن الجاحظ قد المح إلى الفرق بين الإيجاز والتقصير ولم يفصل في ذلك، إلاّ أن الرماني اوضح الفرق بينهما بقوله ((والايجاز بلاغة والتقصير عي.. والايجاز لا اخلال فيه بالمعنى المدلول عليه، وليس كذلك التقصير لأنه لابد فيه من الاخلال))[1] فوصف الإيجاز بالبلاغة نابع من سلامة المعنى، وهو ما أكّد عليه في تعريفاته للايجاز والتي سبق الحديث عنها، في حين أن الاخلال بالمعنى يؤدي إلى التقصير الخارج عن دائرة البلاغة - والعكس صحيح - ولايظن أن ابا الحسن هنا من انصار المعنى على حساب اللفظ: إذ أنه أكّد كثيراً على اهمية اللفظ الموجز وحسن رونقه وعذوبته، وكما هو واضح في حدوده للايجاز، وقد تابعه ابن سنان في ذلك إذ قال: ((وكذلك قد وافقناه في استقباح التقصير وحمد الإيجاز على مافسره من معنييهما عنده))[2].

فـــاذا شـــربت فـــانني مســـتهلك مـــالي، وعرضـــي وافـــر لـــم يكلـــم
واذا صـــحوت فمـــا اقصـــر عـــن نـــدى وكمـــا علمـــت شـــمائلي وتكرمـــي

ديوانه / 206 - 207، اخذه حسان فنقص منه ذكر الصحو فقال:
ونشـــــربها فتتركنـــــا ملوكـــــاً واســـــدا مـــــا ينهنهنـــــا اللقـــــاء

ديوانه / 4، ((ومعنى ذلك ان هذا النوع يدخل في باب السرقات غير المحمودة لأن اللاحق قصر عن
السابق)) معجم المصطلحات البلاغية: 2 / 335.
(1) ر / 78.
(2) سر الفصاحة / 248.

ثانياً: الإطناب والتطويل:

لقد سبق للجاحظ أن فرق بين الإطناب والتطويل وفي اكثر من موضع كما اشرنا سابقاً، أمّا الرماني فيفرق بينهما بقوله ((الإطناب بلاغة والتطويل عي... فاما الإطناب فانما يكون في تفصيل المعنى وما يتعلق به في المواضع التي يحسن فيها ذكر التفصيل))[1] واذ يعد الرماني سلامة المعنى شرطاً في الإطناب والتطويل معاً - فضلا عن اشراكهما بكثرة الألفاظ وزيادتها - فانه يصف الإطناب بالبلاغة لادراكه أن الزيادة فيه تأتي لفائدة وقد عبر عن هذه الفائدة بقوله ((فانما يكون في تفصيل المعنى ومايتعلق به))[2] بل ويشترط أن يكون هذا التفصيل في المواضع التي يحسن فيها، أي التي تحتاج إلى تفصيل، وارى أنه قد جمع بهذه الألفاظ الموجزة - لاسيما قوله تفصيل المعنى ومايتعلق به - كل ماظهر بعده من أقسام الإطناب من تذييل وتكميل وتتميم واعتراض وايغال وغير ذلك، كما اجمل فيها فوائد هذه الأقسام، واحترز بقوله ((في المواضع التي يحسن فيها ذكر التفصيل))[3] عن المواضع التي تكون فيها الزيادة دون فائدة ((كقول النابغة[4]:

يقـــول رجـــال يجهلـــون خليقتـــي لعـــل زيـــاداً - لا أبالـــك - غافـــل

فقوله (لاابالك) اعتراض لافائدة فيه، وليس يؤثر في هذا البيت حسناً ولا قبحاً))[5] وقد وصف الرماني مثل هذا الإطناب بانه تطويل وهو عيب وعي ((لأنه تكلف فيه الكثير فيما يكفي منه القليل))[6] لذلك وصفه الرماني بأنه كمن ((يسلك طريقاً بعيداً جهلاً منه بالطريق القريب))[7] فهو جهل يؤدي إلى ضياع الغرض، أمّا الإطناب فقد وصفه كمن ((يسلك طريقاً بعيداً لما فيه من النزهة والكثيرة والفوائد العظيمة))[8] فهو على علم ببعده ولايجهل ذلك، وعلى علم بفوائد هذا البعد، فهو يصل إلى الغرض ويجني فوائد أخرى، وهو وصف دقيق للاطناب واقسامه وفوائده. ولو لم يكن الرماني مدركاً لكل ذلك لما اطلق

(1) ر / 78 - 79.
(2) ر / 78.
(3) ر / 79.
(4) ديوانه / 119.
(5) معجم البلاغة العربية، د. بدوي طبانة: 2 / 524.
(6) ر / 79.
(7) ر / 79.
(8) ر / 79.

هذا الحكم في هذه الموازنة، وقد نقل ابن سنان ما اورده الرماني هنا ثم قال: ((وهذا المذهب من ابي الحسن موافق لما اخترناه لأنه يذهب إلى حسن الإطناب الذي هو عنده طول الكلام في فائدة وبيان، واخراج للمعنى في معارض مختلفة، وتفصيل له ليتحققه السامع ويستقر عنده فهمه))[1]، ونقل القاضي عبد الجبار (ت415هـ) كلام الرماني دون ذكر اسمه بل اكتفى بالقول ((وقد بين اهل هذا الشأن أن التطويل إنما يعد عيباً في المواضع التي يمكن الإيجاز ويغني عن التطويل فيها))[2].

ثالثاً: الإيجاز والاطناب:

ونصل بعد ذلك إلى الموازنة بين الإيجاز والاطناب عند الرماني، ولاشك أن سلامة المعنى هو الشرط الأول في كل منهما، وأن تهذيب الكلام وتصفية الألفاظ وتلاؤمها هو الشرط الثاني في كل منهما أيضاً ليصح وصفهما بالبلاغة، فما الفرق اذن بعد كل ذلك؟

يجيبنا الرماني بقوله: ((إن لكل واحد من الإيجاز والاطناب موضعاً يكون به اولى من الاخر لأن الحاجة إليه اشد والاهتمام به اعظم))[3] وقد اشرنا - من قبل - أن الجاحظ فرق أيضاً بين الإيجاز والاطناب وجعل لكل منهما موضعاً واشار إلى أن القرآن يتضمن الإيجاز والاطناب وكلاهما من البلاغة المعجزة كل في موضعه[4] كما أشار ابن وهب أيضاً إلى بلاغة الإيجاز والاطناب كل في موصعه[5]، إلاّ اننا نجد أن الرماني كان دقيقاً في في حديثه عن الايجاز والاطناب والتقصير والتطويل مما يدل على براعته وخبرته بفنون الكلام وتعمقه في اسراره الدقيقة، ولا ادري كيف اطلق الدكتور احسان عباس حكمه على الرماني وقد جانب فيه الصواب إذ قال: ((وللرماني اراء يخالف بها المفهومات العامة في سبيل الوصول إلى فكرته، منها اسقاطه الإطناب من انواع البلاغة، فاذا سئل عن ذلك قال: ((إذا كان الإطناب لامنزلة إلاّ ويحسن اكثر منها فالاطناب حينئذ إيجاز كصفة مايستحقه الله تعالى من الشكر على نعمته، فاطناب فيه إيجاز))[6] ولاشك اننا اوضحنا أن ابا الحسن لم يسقط الإطناب من البلاغة، بل عده بلاغة في موضعه إذا كانت الحاجة إليه اشد والاهتمام

(1) سر الفصاحة / 247.
(2) المغني في ابواب التوحيد والعدل: 16 / 401.
(3) ر / 79.
(4) =: الحيوان: 1 / 93 - 94، 6 / 7 والبيان والتبيين: 1 / 97.
(5) =: البرهان في وجوه البيان / 195 - 196.
(6) تاريخ النقد الادبي عند العرب / 341.

به اعظم، بل إن النص الذي اورده الدكتور دليل على أن الرماني قد عد الإطناب بلاغة، فمهما يطل العبد ويطنب في حمد الله وشكر نعمته فقد اوجز.

ويلتفت الرماني التفاتة دقيقة أخرى إلى المعنى، ولاجل إلاّ يكون حديثه عن الإيجاز والاطناب مطلقاً يقول: ((والايجاز والاكثار إنما هما في المعنى الواحد وذلك ظاهر في جملة العدد وتفصيله كقول القائل لي عنده خمسة وثلاثة واثنان في موضع عشرة وقد يطول الكلام في البيان عن المعاني المختلفة وهو مع ذلك في نهاية الإيجاز))[1] فهناك فرق بين التعبير عن المعنى الواحد والتعبير عن المعاني المختلفة، إذ لايكون إطناب في المعنى الواحد إلاّ بقصد تفصيله لزيادة فائدة، أمّا المعاني المختلفة فالتعبير عنها مهما يطل الكلام فيه يكون ايجازاً لأن اختلافها وتعددها يستوجب هذه الاطالة لتحقيق الغرض وزيادة الفوائد فالاطناب في التعبير عن صفة مايستحقه الله تعالى من الشكر على نعمه مهما يطل الكلام فيه يكون في نهاية الإيجاز لأن نعم الله على العباد مختلفة ولاتعد ولاتحصى، فتكون من المعاني المختلفة في النوع والعدد فيكون الإطناب هنا ايجازاً. وبهذه الالتفاته يظهر الرماني جزءاً من بصيرته النافذة إلى ما وراء الألفاظ من معان، فلا يكتفي باطلاق حكم البلاغة على الإطناب كما فعل الجاحظ وابن وهب، بل يبرهن ذلك ببرهان لايقبل المجادلة أو النكران، ويكشف بذلك عن عمق ايمانه وتمسكه بالعروة الوثقى التي لا انفصام لها.

وقد اخذ البلاغيون حديث الرماني عن الإيجاز والاطناب، فنجده بنصه أو معناه عند العسكري[2] والباقلاني (ت403 هـ)[3] وابن سنان[4] فقد نقل الباقلاني الوجوه العشرة عن الرماني دون ذكر اسمه.

(1) ر / 80.
(2) =: كتاب الصناعتين / 209.
(3) =: إعجاز القرآن / 262.
(4) =: سر الفصاحة / 247.

المساواة عند الرماني:

اشرنا في بداية المبحث أن الجاحظ[1] قد تحدث عن المساواة، وكذلك المبرد[2] وقدامة[3]، ويروي ابن رشيق أن الرماني قد تحدث عن المساواة، يقول ابن رشيق: ((الإيجاز عند الرماني على ضربين: مطابق لفظه لمعناه لايزيد عليه ولاينقص عنه))[4] ولاشك أن هذا النص ينطبق على معنى المساواة ويؤكد ابن رشيق ذلك بقوله عن هذا الضرب: ((فاما الضرب الأول مما ذكره ابو الحسن فهم يسمونه المساواة))[5] ويروي ابن رشيق في باب المطابقة عن الرماني فيقول: ((قال الرماني المطابقة[6] مساواة المقدار من غير زيادة ولانقصان))[7] ولم يرد كلا النصين في النكت، وربما نقلهما ابن رشيق من كتاب كتاب اخر للرماني، أو انهما قد سقطا من كتاب النكت لسبب ما[8].

ويمكن القول بعد كل ذلك - أن الرماني قد استكمل الحديث عن الإيجاز والاطناب والمساواة، وقد جمعها في باب واحد لاسباب:

الاول: أنه كان موجزاً في رسالته هذه.

الثاني: أن منهجه فيها يقوم على تناول الفن البلاغي وضده وما يتعلق بهما وسنجد ذلك واضحاً في التلاؤم والفواصل.

الثالث: أن الجمع بينها هو تعبير عن رأيه في بلاغة كل منها في موضعه.

الرابع: إن هذا الجمع يعبر عن مقدرته على اجمال الحديث وجمع اطرافه مع اظهار اسرار البلاغة فيه وقوتها.

وقد اختلف العلماء في أي الثلاثة ابلغ واولى بالكلام، فذهب قوم إلى ترجيح الإيجاز، وذهب اخرون إلى أن الإطناب ارجح، واخرون إلى ترجيح المساواة، وكان لكل فئة

(1) =: الحيوان: 6 / 8 والبيان والتبيين: 1 / 139.
(2) =: البلاغة / 90.
(3) =: نقد الشعر / 171.
(4) العمدة: 1 / 221.
(5) م ن: 1 / 221.
(6) المطابقة عند معظم البلاغيين هي الجمع بين الشيء وضده في الكلام . =: كتاب الصناعتين / 339 ومعجم البلاغة العربية: 453/1 - 455.
(7) العمدة: 2 / 6.
(8) يرى د. عبد القادر حسين ان هذا العمل لم يكتمل، =: اثر النحاة في البحث البلاغي / 272.

حججها[1]. إلاّ اننا نجد أن ماذهب إليه الرماني في قوله ((لكل واحد من الإيجاز والاطناب موضعاً يكون به اولى من الاخر))[2] وتابعه فيه القلقشندي (ت821هـ) من أن ((لكل منها موضعاً لايخلفه فيه رديفه، إذا وضع فيه انتظم في سلك البلاغة ودل على فضل الواضع واذا وضع غيره دل على نقص الواضع وجهله برسوم الصناعة))[3] هو عين الصواب، لاسيما وأن الرماني يتحدث عن بلاغة القرآن المعجزة من هذه الناحية فهو يؤكد أن الثلاثة واردة في القرآن في موضعها الذي انتظمت فيه فكانت في اعلى طبقة من البلاغة.

من جمال الإيجاز عند الرماني:

يستشف مما تقدم أن للايجاز جماله وبلاغته وفوائده، وقد اوجز الرماني القول في جمال الإيجاز حين قال: ((والايجاز على وجهين: احدهما اظهار النكتة بعد الفهم لشرح الجملة والاخر احضار المعنى بأقل مايمكن من العبارة))[4]. وقد عد بعضهم[5] الوجه الأول الأول مأخذاً على الرماني لاسيما قوله فيه إنه ((يكون كثيراً في العلوم القياسية وذلك أنه إذا فهم شرح الجملة كفى بعد ذلك حفظ النكتة لانها حينئذ دالة ومغنية عن التعلق بها في نفسها لتعلق النكتة بها، فهذا الضرب من الإيجاز لايكون إلاّ بعد احوال متقررة من الفهم لشرح الجملة فحينئذ تكون النكتة مغنية))[6]، بل جعلوا ذلك جزءاً من غلبة المنطق على ذهنه.

والحق أن المتأمل لكلام الرماني لايجد فيه مأخذا عليه ولا أثراً للمنطق فيه إذا ما وضع امامه أن الرماني هنا في مقام الشرح والتعليم، مما يستوجب تقريب الصورة وضرب الامثلة وتعليل الاحكام واقامة البراهين، فضلا عن أن الرماني يتحدث عن اعجاز القرآن ويحاول اظهار جانب من بلاغته المعجزة في هذا القسم باظهار جماله وروعته، هذا الجمال الذي يجمع بين قلة اللفظ وبلاغته وروعة المعنى وكثرته.

ولنضع ذلك امامنا ونتأمل النص، فنجد أنه يعود بنا إلى شواهد الإيجاز لاسيما شواهد القصر، فقد اشرنا في بعض منها إلى انها جاءت تذييلا لما سبقها، وكان مما يخرج

(1) =: صبح الاعشى في صناعة الانشا، للقلقشندي: 2 / 335 - 336.
(2) ر / 79.
(3) صبح الاعشى: 2 / 336.
(4) ر / 79.
(5) =: اثر القرآن في تطور النقد العربي / 246، وبلاغة القرآن بين الفن والتاريخ / 89.
(6) ر / 79.

مخرج المثل كقوله تعالى: ﴿ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ﴾ [1] وقوله: ﴿ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم ﴾ [2] وقوله ﴿ وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [3]، وقد جاءت الايات تلخيصاً وايجازاً - باسلوب التذييل - لما قبلها، وكأن النكتة التي يشير إليها الرماني هنا جاءت بعد فهم الايات ومضمونها وبعد فهم شرحها وتفصيل احكامها فكانت بذلك حكماً موجزاً يترسخ في ذاكرة المخاطب ونفسه في كل زمان ومكان، وكانت دالة ومغنية عن التعلق بما قبلها دون تفضيل بينها وبين ما قبلها، وهكذا اراد الرماني أن يوضح هذه الصورة وهذا الجانب من جمال الإيجاز فاستعان بالعلوم القياسية ليستطيع المتلقي أن يستوعب ما اراد الرماني اظهاره هنا.

وقد ذهب قدامة من قبل - إلى مثل ماذهب إليه الرماني - عند حديثه عن الإيجاز إذ يرى أن ((من الشعراء من يجمل المدح فيكون ذلك باباً من ابوابه حسناً أيضاً كقول الحطيئة[4] بعد أبيات المدح:

متى تأته تعشو إلى ضوء ناره تجد خير نار عندها خير موقد

فقد تصرف في الابيات الأول في أصناف المديح المتقدم ذكرها واتى بجماع الوصف وجملة المديح على سبيل الاختصار في هذا البيت))[5].

وفي تعليل الرماني لجمال الإيجاز في الوجه الاخر يقول ((واما الوجه الاخر فمستأنف لم يقرر له حال خاصة يكون جاراً لها من حيث تعلق بها من فهم كيف وجه التعلق فيهما))[6]. واذا كانت هذه الجملة غامضة قلقة كما أشار محققا الكتاب، فيمكن إنه أشار هنا إلى القسم الاخر الذي لايكون تلخيصاً أو ايجازاً لما يسبقه من الكلام كما مر سابقاً، وانما يكمن الجمال فيه بتعبيره عن معنى مستقل لايتعلق بما سبقه من احكام بأقل مايمكن من الألفاظ، وقد تتضمن هذه الألفاظ القليلة اكثر من معنى، وكأني به هنا يشير إلى ماسمي فيما بعد بـ (الإيجاز الجامع) الذي ذكره ابن مالك (ت686هـ) بقوله: ((أن يكون المعنى عندك خليقاً بمزيد من البسط فتتركه إلى بسط أخصر منه لتوخي نكتة))[7] وذكره

(1) سورة فاطر: من 43.
(2) سورة يونس: من 23.
(3) سورة البقرة: من 179.
(4) ديوانه / 81.
(5) نقد الشعر / 85.
(6) ر / 79.
(7) المصباح / 38.

الطيبي[1] (ت743هـ)، ونقله عنه السيوطي (ت911هـ) وقال ((هو أن يحتوي اللفظ على معان متعددة))[2] كقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ ﴾[3] وقوله تعالى: ﴿ خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴾[4].

فوائد الإيجاز عنده:

(1) =: التبيان في البيان / 121 - 122.
(2) شرح عقود الجمان / 69.
(3) سورة النحل: من 90.
(4) سورة الاعراف: 199.

أكّد السابقون للرماني على جزء من فوائد الإيجاز - كما اوضحنا سابقاً -، وقد تبين من خلال ماتقدم جزء من فوائد الإيجاز عند الرماني لاسيما تأكيده على الأثر النفسي في حذف الجواب فضلا عما اورده من موازنة الآية بقولهم (القتل انفى للقتل)، ويعود هنا ليؤكد جزءاً آخر من فوائد الإيجاز بقوله ((والايجاز على ثلاثة اوجه: الإيجاز بسلوك الطريق الاقرب إلى الابعد، وايجاز باعتماد الغرض دون ماتشعب، وايجاز باظهار الفائدة بما يستحسن دون مايستقبل لأن المستقبل ثقيل على النفس))[1]، فهو يشير إلى أن الإيجاز هو سلوك الطريق الاقرب وفائدة ذلك تتمثل بتوفير جهد المتلقي وسرعة وصوله إلى المعنى دونما تشعب وعناء. ويشير إلى فائدة تتعلق باثر الايجاز في النفس إذ النفس تميل إليه لأنه يحقق الغرض بزمن مختصر في حين يكون (المستقبل) والذي يعني هنا الاطالة من حيث الزمن - ثقيل على النفس، ويشبه ذلك بما يأتي في الشعر قبل الغرض الاساس للقصيدة - والذي لايخلو من فائدة- أو كالصفات كما يعترض الكلام مما ليس عليه الاعتماد[2]، ففائدة الإيجاز هنا اقبال النفس وميلها إليه لتوفير الجهد والوقت واعطاء المعنى المقصود بصورة مباشرة.

الإيجاز والاعجاز عند الرماني:

أن القاريء لقسم الإيجاز عند الرماني لربما يعتقد - وهما - أن الرماني لم يشرح الإعجاز في هذا القسم وأن كان قد وازن بين قوله تعالى: ﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ ﴾ [3] وقولهم (القتل انفى للقتل) وأن ذلك لايضع اليد على شيء[4].

(1) ر / 79.
(2) =: ر / 79 - 80.
(3) سورة البقرة: من 179.
(4) =: الإعجاز البلاغي / 96.

والحق إن الرماني **اولا:** لايقول بأن الإعجاز يكمن في وجه واحد من اوجه البلاغة عنده كالايجاز أو غيره، وانما الإعجاز عنده يكون باجتماع الاوجه[1] التي تناولها في نكته باقسامها وفروعها التي أكّد عليها - فضلا عن الاوجه الأخرى غير البلاغية -، **ثانياً:** أنه نبه إلى طريقة الانتفاع بهذه الاوجه في بيان الإعجاز وهنا في قسم الإيجاز ينبه إلى ذلك بقوله ((واذا عرفت الإيجاز ومراتبه، وتأملت ماجاء في القرآن منه عرفت فضيلته على سائر الكلام وهو علوه على غيره من سائر الكلام وعلوه على غيره من انواع البيان))[2].

ويفتح الرماني بذلك باباً واسعاً للبحث يشمل دراسة الإيجاز في سائر كلام اهل الطبع وتأمل سائر ماجاء منه في القرآن[3]، فهي دعوة للبحث في الإيجاز بكل انواعه في القرآن وفي كلام العرب، ولاشك أن هذا يظهر جانباً من تواضعه العلمي والخلقي، فعلى الرغم مما قدمه في قسم الإيجاز - وهو ماجعل الكثيرين يقولون أنه صور الإيجاز تصويراً نهائياً[4] - ولايدعي لنفسه الكمال بما قدمه ولا أنه لم يترك صغيرة أو كبيرة إلاّ اوضحها أو أشار إليها ولايدعي أنه لم يترك للاخرين شيئاً في هذا القسم، وانما يوجه دعوة لدراسة الإيجاز والاطناب والمساواة وكل مايتعلق بها دراسة موازنة بين كلام العرب والقرآن الكريم لتظهر النتيجة الاكيدة التي لالبس فيها ولاشك البتة، وهي الإعجاز البلاغي في القرآن الكريم.

وختاماً لهذا المبحث لابد من ذكر أثر الرماني فيمن جاء بعده من العلماء، ويظهر ذلك بنقلهم عنه ما اورده عن الإيجاز، ومن هؤلاء العلماء ((العسكري والباقلاني وابن رشيق وابن سنان والرازي))[5] وقد روى لنا السبكي[6] (ت773هـ) أن القزويني[7] (ت739هـ) أيضاً قد نقل الإيجاز عن الرماني.

وهكذا يظهر جزء من أثر الرماني في البلاغة العربية بوصفه علماً من اعلامها كما يتجلى بذلك جزء من اثره في علمائها أيضاً.

---

(1) =: ر / 78.
(2) ر / 80.
(3) =: الإعجاز البلاغي / 97.
(4) =: اثر النحاة في البحث البلاغي / 246 وبلاغة القرآن في اثار القاضي عبد الجبار، د. عبيد الفتاح لاشين / 438، وفكرة النظم بين وجوه الإعجاز / 58، والبلاغة تطور وتاريخ، د. شوقي ضيف / 104.
(5) =: على الترتيب: كتاب الصناعتين / 195، واعجاز القرآن / 262 ومابعدها، والعمدة: 1 / 222 ومابعدها، وسر الفصاحة / 247 - 248، ونهاية الإيجاز / 176 - 177.
(6) =: عروس الافراح في شرح تلخيص المفتاح، ضمن شروح التلخيص: 3 / 202.
(7) =: التلخيص في علوم البلاغة / 214.